دروس (٩/ ...-...)

سورة رقم ٥٥

التعليق على
تفسير سورة الرَّحمن
لابن كثير

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ
وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا
تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ
(١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ
(١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩)
بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ
الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) سَنَفْرُغُ لَكُمْ
أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَّا
يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ
(٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٤٥) وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا
عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ
بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا
جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ
إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ
(٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ
(٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ
وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨)﴾

الدرس الأول

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

تَفْسِيرُ سُورَةِ الرَّحْمَنِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَفَّانُ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ زِرٍّ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِابْنِ مَسْعُودٍ: كَيْفَ تَعْرِفُ هَذَا الْحَرْفَ: «مَاءٍ غَيْرِ يَاسِنٍ أَوْ آسِنٍ»؟ فَقَالَ: كُلَّ الْقُرْآنِ قَدْ قَرَأْتَ. قَالَ: إِنِّي لَأَقْرَأُ الْمُفَصَّلَ؛ أَجْمَعَ فِي رَكْعَةٍ وَاحِدَةٍ. فَقَالَ: أَهَذًّا كهذِّ الشِّعْرِ، لَا أَبَا لَكَ؟ قَدْ عَلِمْتُ قَرَائِنَ النَّبِيِّ ﷺ الَّتِي كَانَ يَقْرِنُ قَرِينَتَيْنِ قَرِينَتَيْنِ مِنْ أَوَّلِ الْمُفَصَّلِ، وَكَانَ أَوَّلَ مُفَصَّلِ ابْنِ مَسْعُودٍ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١﴾.

وَقَالَ أَبُو عِيسَىٰ التِّرْمِذِيُّ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ وَاقِدٍ أَبُو مُسْلِمٍ، حَدَّثَنَا الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ أَصْحَابِهِ فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ «الرَّحْمَنِ» مِنْ أَوَّلِهَا إِلَىٰ آخِرِهَا، فَسَكَتُوا فَقَالَ: «لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَىٰ الْجِنِّ لَيْلَةَ الْجِنِّ، فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ، كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، قَالُوا: لَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ -رَبَّنَا- نُكَذِّبُ، فَلَكَ الْحَمْدُ».

ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ زُهَيْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ. ثُمَّ حَكَىٰ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ أَنَّهُ كَانَ لَا يَعْرِفُهُ، يُنْكِرُ رِوَايَةَ أَهْلِ الشَّامِ عَنْ زُهَيْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ هَذَا.

وَرَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّارُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَالِكٍ، عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ. وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ شَبَّوَيْهِ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عَمَّارٍ، كِلَاهُمَا عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ، بِهِ. ثُمَّ قَالَ: لَا نَعْرِفُهُ يُرْوَىٰ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادِ بْنِ مُوسَىٰ، وَعَمْرُو بْنُ مَالِكٍ الْبَصْرِيُّ قَالَا حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ سُلَيْمٍ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أُمَيَّةَ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ سُورَةَ «الرَّحْمَنِ» -أَوْ: قُرِئَتْ عِنْدَهُ- فَقَالَ: «مَا لِي أَسْمَعُ الْجِنَّ أَحْسَنَ جَوَابًا لِرَبِّهَا مِنْكُمْ؟» قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَا أَتَيْتُ عَلَىٰ قَوْلِ اللهِ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إِلَّا قَالَتِ الْجِنُّ: لَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعْمَةِ رَبِّنَا نُكَذِّبُ».

وَرَوَاهُ الْحَافِظُ الْبَزَّارُ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَالِكٍ، بِهِ. ثُمَّ قَالَ: لَا نَعْلَمُهُ يُرْوَىٰ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا مِنْ هَذَا الوجه بهذا الإسناد.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

أحمدك ربي، وأثني عليك الخير كله، وأصلي وأسلم علىٰ عبدك ورسولك محمد، وعلىٰ آله وصحبه.

وبعد؛ فهٰذه السورة سورة الرَّحمٰن فيها ذكر أنواع من رحمة الله جل وعلا علىٰ عباده بنعمه وأصناف أنعام الله جل وعلا علىٰ المؤمنين، وهذا من أسرار افتتاحها باسم الله جل وعلا (الرَّحمٰن) كما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ بيانه.

هذه المقدمة، عادة ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يذكر في صدر تفسير السورة عددًا من الأحاديث والآثار التي فيها ذكر فضل السورة أو ما جاء فيها علىٰ وجه العموم من جهة سبب نزولها أو وقت تنزّلها أو نحو ذلك.

أما الأثر الأول الذي ساقه، وهو أن سورة الرَّحمٰن كانت في أول المفصّل من مصحف ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فالمفصل مر معك فيما سبق في أول تفسير سورة ق الخلاف من أين يبدأ المفصل؛ لكن ذاك خلاف علىٰ ما استقرت عليه تجزئة المصاحف في أن أوله ق أو الحجرات، وأما مصحف ابن مسعود فكان له تجزئة أخرىٰ، وذلك أن السلف كانوا يجزئون المصحف -أعني الصحابة- إلىٰ سبعة أجزاء فيبتدئون بالفاتحة لأنها أول المصحف ثم المائدة إلىٰ آخره إلىٰ أن يأتي المفصل، والمفصل حزب وحده هو الحزب الأخير، يختلفون في التجزئة بحسب اجتهاد الصاحب، وهذه الأجزاء ليست توقيفية؛ يعنىٰ هذا الأحزاب ليست توقيفية، وإنما هي علىٰ ما جرت عليه عادتهم في أنهم يقرؤون الحزب الواحد من هذه السبعة في يوم، فكان الذي يُريد أن يختم في سبع كما هي القراءة المعتدلة المتأنية فإنه يقرأ الحزب الواحد في يوم.

فابن مسعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورضي عنه حزب المفصل عنده يبتدئ كما ذكر من الرَّحمٰن، هذا بحسب اصطلاحه في تقسيمه مصحفه، ومصحف ابن مسعود يختلف عن المصاحف الأخرىٰ التي أمر عثمان بإرسالها إلىٰ الأمصار، ولذلك فيه زيادات وفيه نقص بحسب الحرف الذي كان يقرأ به ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فتقسيم الأحزاب اصطلاحي ليس متفقًا عليه في مصاحف الصحابة. ولكن جاء الأمر أو رجع الأمر؛ بل استقر الأمر علىٰ أن يكون المفصل من سورة ق إلىٰ آخره.

وحديث قول الجن لما سمعوا قول الله جل وعلا: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قالوا: سبحانك لا بشيء

من نعمك ربنا نكذب، والرواية الثانية من حديث جابر أو من حديث ابن عمر كلها يعني يعضد بعضها بعضا وتكون حسنة وإلا فالأولىٰ إسنادها فيه الوليد بن مسلم وهو معروف عند أهل العلم بالتدليس، وجواب الجن «لا بشيء من نعمك ربنا نكذب». هذا يدل علىٰ أن وقت تنزل سورة الرحمن هو وقت ذهاب النبي عليه الصلاة والسلام من مكة إلىٰ الطائف بالوادي الذي يُعرف بوادي نخلة أو نحو ذلك حينما قرأ عليه السلام وسمعته الجن.

وسبب جواب الجن أن الخطاب لهم وللإنس لأن قوله تعالىٰ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ هذا خطاب لجنس الجن والإنس. والجن مكلفون، فإذا كان كذلك وأثني علىٰ جوابهم بهذا فإنه ينبغي للإنس أن يقولوا مثل ذلك إذا سمعوا التلاوة؛ لكن لا يُكرر هذا في الصلاة، وإنما يكفي أن يقوله المتنفل مرة واحدة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ: أَنَّهُ أَنْزَلَ عَلَىٰ عِبَادِهِ الْقُرْآنَ وَيَسَّرَ حِفْظَهُ وَفَهْمَهُ عَلَىٰ مَنْ رَحِمَهُ، فَقَالَ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤﴾ قَالَ الْحَسَنُ: يَعْنِي: النُّطْقَ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُهُمَا: يَعْنِي الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَقَوْلُ الحسن ها هنا أَحْسَنُ وَأَقْوَىٰ؛ لِأَنَّ السِّيَاقَ فِي تَعْلِيمِهِ تَعَالَىٰ الْقُرْآنَ، وَهُوَ أَدَاءُ تِلَاوَتِهِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِتَيْسِيرِ النُّطْقِ عَلَىٰ الْخَلْقِ وَتَسْهِيلِ خُرُوجِ الْحُرُوفِ مِنْ مَوَاضِعِهَا مِنَ الْحَلْقِ وَاللِّسَانِ وَالشَّفَتَيْنِ، عَلَىٰ اخْتِلَافِ مَخَارِجِهَا وَأَنْوَاعِهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥﴾ أَيْ: يَجْرِيَانِ مُتَعَاقِبَيْنَ بِحِسَابٍ مُقَنَّنٍ لَا يَخْتَلِفُ وَلَا يَضْطَرِبُ، ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [يس]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٩٦﴾ [الأنعام].

وَعَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ قَالَ: لَوْ جَعَلَ اللهُ نُورَ جَمِيعِ أَبْصَارِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالدَّوَابِّ وَالطَّيْرِ فِي عَيْنَيْ عَبْدٍ، ثُمَّ كَشَفَ حِجَابًا وَاحِدًا مِنْ سَبْعِينَ حِجَابًا دُونَ الشَّمْسِ، لَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا. وَنُورُ الشَّمْسِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نُورِ الْكُرْسِيِّ، وَنُورُ الْكُرْسِيِّ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نُورِ الْعَرْشِ، وَنُورُ الْعَرْشِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نُورِ السِّتْرِ. فَانْظُرْ مَاذَا أَعْطَىٰ اللهُ عَبْدَهُ مِنَ النُّورِ فِي عَيْنَيْهِ وَقْتَ النَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِ رَبِّهِ الْكَرِيمِ عِيَانًا. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

قال جل وعلا: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١﴾ والبسملة مرت معنا فيما قبل، وقررنا لك أن البسملة آية في أول كل سورة تفتتح بها السور في غير براءة، ولا تُعد آية من السور؛ يعنىٰ أنها لا تدخل في الحساب؛ بل هي آية منقطعة؛ وذلك لقول النبي عليه الصلاة والسلام في سورة تبارك: «سورة ثلاثون آية أنجت صاحبها من القبر ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾» وهي بالتعداد لا تدخل فيها البسملة إلىٰ غير ذلك من الأدلة الكثيرة.

والصواب من أقوال أهل العلم في ذلك أن البسملة آية وليست جزءًا من آية في صدر كل سورة، فهي

آية مستقلة لكنها لا تدخل في العدد.

قال جل وعلا: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١﴾ والرَّحمٰن اسم من أسماء الله الحسنىٰ العظيمة، وهو من أسماء الجمال لله جل وعلا، فهذا الاسم مشتمل علىٰ أعظم صور الرحمة وأبلغ صفات الرحمة لله جل وعلا فهو أبلغ من الرحيم في دلالته، وهذا الاسم مشتمل علىٰ رحمة الله جل وعلا الواسعة التي أناطها بخلقه أجمعين كما قال سبحانه: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[الأعراف:١٥٦]، ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾[غافر:٧]، ورحمة الله جل وعلا لا يستغني عنها شيء من خلقه، لا الجامد ولا المتحرك، لا ذي الروح ولا غيره، فالكل محتاجون لرحمة الله جل وعلا.

فإذن اسم الله جل وعلا الرَّحمٰن متعبد الله جل وعلا به في الدعاء كما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠]، واسم الله الرَّحمٰن له من الآثار أعظم من كثير بل أعظم من غالب الأسماء الحسنىٰ؛ وذلك أن مرجع صفات الجمال وهي أكثر صفات الله جل وعلا إليه.

ذكر جل وعلا بعده أعظم أنواع رحمة الله جل وعلا التي أناطها بالمكلفين، وابتدأ بها ليُبين عظم شان هذه الرحمة بخصوصها فقال جل وعلا: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾ فتعليم القرآن هو أعظم أنواع رحمة الله جل وعلا علىٰ عباده وهو الفضل والرحمة العظيمة التي أسداها الله للعباد، قال جل وعلا في سورة يونس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧﴾ يعني القرآن ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٥٨﴾، ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ يعنىٰ بالقرآن الذي هو فضل الله جل وعلا ورحمته كما ساق ابن أبي حاتم عند الآية في تفسيره أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أتت أموال الصدقة وكانت إبلًا عظيمة كثيرة قال له غلامه يا أمير المؤمنين هلم بنا ننظر إلىٰ إبل الصدقة فذهبنا فلما أتيا إبل الصدقة وكانت كثيرة ومنظرها فيه سواد عظيم قال: فرح الغلام لفرحه بالدنيا فقال: يا أمير المؤمنين؛ هذا فضل الله ورحمته فالتفت إليه عمر وقال له: كذبت؛ ولكن فضل الله ورحمته القرآن: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٥٨﴾ وهذا الذي ترىٰ مما يجمعون، فأعظم النعم في الحقيقة؛ بل أعظم أنواع رحمة الله جل وعلا وأعظم آثار رحمة الله علىٰ عباده أن علمهم القرآن، علمهم القرآن تلاوة، وعلمهم القرآن حفظًا، وعلمهم القرآن بقاءً لهذا الكتاب، وعلمهم القرآن فيما يشتمل عليه من أحكام وأخبار فيما يجب عليهم من تصديق الأخبار ومن العمل بالأحكام؛ لهذا قال

جل وعلا ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ ﴾ وفي الواقع تعليم القرآن هو أعظم النعم، مع أنه متأخر عن خلق الإنسان؛ لكنه وإن كان يأتي بعد خلق الإنسان نعمة يعني يأتي بعد خلق الإنسان مرتبة وجودية لكنه قبل خلق الإنسان نعمة؛ لهذا قال سبحانه بعدها ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ ﴾.

وقوله: ﴿ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ ﴾ يعنىٰ به تعليم النبي عليه الصلاة والسلام؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام عُلّم القرآن عُلم تلاوته وعُلّم النبي عليه الصلاة والسلام أحكام القرآن وما فيه، كان معه عليه الصلاة والسلام الكتاب والحكمة التي هي السنة يبين بها القرآن.

لهذا ذهب جمع كثير بل الأكثر من أهل العلم بالقراءات وبالتفسير أن قراءة القرآن علىٰ هذا النحو المعروف مما تُلقي عن القراء بل أسانيد الصحيحة أن هذه قراءة مبناها التعلم وليست مورد اجتهاد، ولهذا ذهب طائفة من أهل العلم بالقراءات إلىٰ إيجاب التجويد؛ لأنه سنة القراءة، والله جل وعلا قال لنبيّه: ﴿ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ۝١٨ ﴾[القيامة]، يعني فاتبع القراءة، وهكذا تناقلها القراء عن الصحابة علىٰ هذا النحو، لم يجتهد فيها القارئ، فالقارئ علم الحروف وعلم الأداء، الأداء نوع من القراءة، بل الأداء هو بعض القراءة، فالأداء لا يجتهد فيه كما أن الحروف لا يجوز تغييرها، لهٰذا ذهب أكثر القراء إلىٰ أن القرآن في طريقة تلاوته جاء عن التعليم، ولهذا فيه أحكام مشروعة بالاتفاق مع أنها لا تُسمع، ليس لها أثر في سماع التلاوة، ومن ذلك الإشمام في نحو قوله تعالىٰ: ﴿مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ [يوسف:١١] فهذا لا أثر له في السماع ولا أثر له في القراءة؛ لكنه تعبد خاص، وهذا قول القراء في إيجاب اتباع القراءة علىٰ هذا النحو؛ لكن ثبت عن النبي ﷺ عدم الالتزام بأحكام التجويد علىٰ النحو المعروف في قراءته لبعض سورة الفتح ومدها وفي سرعة قراءته وأشباه ذلك، ولهذا ذهب الفقهاء لا القراء إلىٰ أن التجويد أفضل ولكنه ليس بواجب ويكون الأمر ﴿ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ۝١٨ ﴾ أن هذا للاستحباب يعني في الأداء، أما في الحروف فواجب بلا شك لكن في الأداء ذهبوا إلىٰ أنه للاستحباب لا للإيجاب.

وهذا في الواقع يختلف إذا نظرت إليه من جهة أخرىٰ، باختلاف اللهجات، باختلاف الأحرف السبعة ففي الشيء يكون الأحكام فيها مختلفة، ولذلك المدود وأحكام الإخفاء وأحكام النون والميم إلىٰ آخره تختلف في بعض أحكامها ما بين قارئ وقارئ؛ يعني القراء السبعة أو العشرة، وكذلك صفة الأداء، كذلك مخارج الحروف من حيث الترقيق والتفخيم، ومن حيث يعني أشياء كثيرة لا مجال لذكرها

يعرفها أهل الاختصاص.

المقصود من ذلك أن تعليم القرآن تعليم للأداء، تعليم لنطق الحروف، تعليم لما فيه من الأحكام، تعليم لما فيه من العقيدة، والنبي عليه الصلاة والسلام بلغ الجميع عليه الصلاة والسلام.

قال سبحانه يعني معنىٰ القرآن واشتقاقه إلىٰ آخره مر معنا فيما سبق قال بعدها جل وعلا: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣﴾ والمقصود بالإنسان إما الجنس -يعني كل إنسان-، وإما آدم عليه السلام الذي عُلِمَ البيان وجُعِلَ مفصحًا عما في ضميره بأنواع البيان والنطق، وهذه نعمة خاصة وأثر من آثار رحمة الله جل وعلا أن جعل الإنسان ذا بيان.

قال: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ والبيان كما سمعت قال فيه الحسن البيان: (يَعْنِي: النُّطْقَ)، (وَقَالَ الضَّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُهُمَا: يَعْنِي الْخَيْرَ وَالشَّرَّ.) قال: (وَقَوْلُ الحسن ها هنا أَحْسَنُ وَأَقْوَىٰ)؛ وذلك يعني مأخذ تفسير، الضَّحاك وقتادة مأخذ لغوي، كما أن مأخذ الحسن أيضًا لغوي؛ لأن كلمة (البيان) مأخوذة من البينونة ومن البين الذي هو الانفصال والافتراق، والنطق منفصل عن الإنسان؛ لأنه إذا تكلم بالكلمة، إذا أبان عما في ضميره فقد انفصل عنه إلىٰ غيره بعد أن كان مستكنًا في ضميره، والبيان الذي هو الخير والشر الذي هو أُبين عنه وانفصل منه هو في الحقيقة بيان؛ لأنه بائن، فما دام أنه بان منه فهو بيان؛ لأنه منفصل عنه، فيعني قول الضحاك وقتادة وغيرهما ليس بغريب ولا بمضطرح؛ لأن له مأخذًا في اللغة؛ لكن البيان بمعنىٰ النطق والافصاح عما في النفس، هذا هو الصحيح في التفسير، وذلك أيضًا؛ لأن كلمة (البيان) في الاستعمال العرفي وفي الحقيقة العرفية أنيطت ببيان اللسان لا ما يصدر عن الإنسان بجوارحه من أفعال الخير وأفعال الشر، وإنما هو بما يُبين به عن نفسه، ومن المتقرر في الأصول أن الحقيقة اللغوية والحقيقة العرفية إذا تعارضا قدمت الحقيقة العرفية، ولهذا كان أكثر استعمال كلمة البيان فيما بان عن الإنسان من نطقه، لا ما بان عن الإنسان من أجزائه الأخرىٰ أو أفعاله، أو ما بان عن غيره أو نحو ذلك.

وعلله ابن كثير بقوله: (لِأَنَّ السِّيَاقَ فِي تَعْلِيمِهِ تَعَالَىٰ الْقُرْآنَ، وَهُوَ أَدَاءُ تِلَاوَتِهِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِتَيْسِيرِ النُّطْقِ عَلَىٰ الْخَلْقِ وَتَسْهِيلِ خُرُوجِ الْحُرُوفِ مِنْ مَوَاضِعِهَا مِنَ الْحَلْقِ وَاللِّسَانِ وَالشَّفَتَيْنِ، عَلَىٰ اخْتِلَافِ مَخَارِجِهَا وَأَنْوَاعِهَا.) وهذا فيه تأكيد لنعمة القرآن، والتأسيس أولىٰ من التأكيد فالأولىٰ أن يُجعل ذلك

أثر من آثار رحمة الله جل وعلا بمعنىٰ زائد وبشيء جديد عن تعليم القرآن، فلا يُحمل قوله: ﴿ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤ ﴾ علىٰ علم القرآن؛ لأن تعليم القرآن هو تعليم للبيان في نفسه بما فيه، فقول ابن كثير هذا فيه تأكيد لما سبق، والتأسيس أولىٰ من التأكيد؛ لأنه منفصل أيضًا بقوله: ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ ﴾؛ ولأن تعليم القرآن نعمة خاصة بالمؤمن، وأما إذا أبان وتلا ونطق، وأما تعليم البيان فهي نعمة عامة بها تكريم الإنسان.

﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥ ﴾ الشمس معروفة والقمر أيضًا معروف؛ لأن الشمس المقصود منها هذه الشمس والقمر المقصود منه هذا القمر، لا نوع الشموس ونوع الأقمار، لأن الأقمار كثيرة من حيث هي، والشموس كثيرة من حيث هي؛ ولكن المقصود هنا الشمس والقمر، وحيثما وردت في القرآن أنه الشمس المعهودة والقمر المعهود.

﴿بِحُسۡبَانٖ ٥ ﴾ يعني تجري بحساب جعله الله جل وعلا مُقننا، لا تخرج الشمس عن هذا الحساب ولا القمر عن هذا الحساب؛ ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠ ﴾[يس].

أما أثر عكرمة فهذا اجتهاد منه، وفيه أمور غيبية لا يكفي في الأخذ بها أن تكون عن أحد التابعين، والمعروف عند الأصوليين أن إتيان التابعي بشيء مما لا يُدرك بالاجتهاد ولا تعمل فيه العقول أنه بمنزلة المرسل، وهذا فيما إذا لم يكن يأخذ عن أهل الكتاب.

نكتفي بهذا القدر.

الدرس الثاني

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿ وَٱلنَّجۡمُ ﴾ بَعْدَ إِجْمَاعِهِمْ عَلَىٰ أَنَّ الشَّجَرَ مَا قَامَ عَلَىٰ سَاقٍ، فَرَوَىٰ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: النَّجْمُ مَا انْبَسَطَ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ -يَعْنِي مِنَ النَّبَاتِ. وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالسُّدِّيُّ، وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ. وَقَدِ اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: النَّجْمُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ. وَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ وقَتَادَةُ. وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْأَظْهَرُ وَاللهُ أَعْلَمُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ ﴾ الْآيَةَ [الْحَجِّ: ١٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ ﴾ يَعْنِي: الْعَدْلَ، كَمَا قَالَ: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ [الْحَدِيدِ: ٢٥]، وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ ﴾ أي: خلق السموات وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، لِتَكُونَ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩ ﴾ أَيْ: لَا تَبْخَسُوا الْوَزْنَ، بَلْ زِنُوا بِالْحَقِّ وَالْقِسْطِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ١٨٢ ﴾ [الشُّعَرَاءِ].

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠ ﴾ أَيْ: كَمَا رَفَعَ السَّمَاءَ وَضَعَ الْأَرْضَ وَمَهَّدَهَا، وَأَرْسَاهَا بِالْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ الشَّامِخَاتِ، لِتَسْتَقِرَّ لِمَا عَلَىٰ وَجْهِهَا مِنَ الْأَنَامِ، وَهُمُ: الْخَلَائِقُ الْمُخْتَلِفَةُ أَنْوَاعُهُمْ وَأَشْكَالُهُمْ وَأَلْوَانُهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ، فِي سَائِرِ أَقْطَارِهَا وَأَرْجَائِهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ: الْأَنَامُ: الْخَلْقُ.

﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ ﴾ أَيْ: مُخْتَلِفَةُ الْأَلْوَانِ وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ، ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١ ﴾ أَفْرَدَهُ بِالذِّكْرِ لِشَرَفِهِ وَنَفْعِهِ، رَطْبًا وَيَابِسًا. وَالْأَكْمَامُ -قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هِيَ أَوْعِيَةُ الطَّلْعِ. وَهَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، وَهُوَ الَّذِي يَطْلُعُ فِيهِ الْقِنْوُ ثُمَّ يَنْشَقُّ عَنِ الْعُنْقُودِ، فَيَكُونُ بُسْرًا ثُمَّ رُطَبًا، ثُمَّ يَنْضَجُ وَيَتَنَاهَىٰ يَنْعُه وَاسْتِوَاؤُهُ.

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ذُكِرَ عَنْ عَمْرِو بْنِ عَلِيٍّ الصَّيْرَفِيِّ: حَدَّثَنَا أَبُو قُتَيْبَةَ، حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ الْحَارِثِ الطَّائِفِيُّ، عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: كَتَبَ قَيْصَرُ إِلَىٰ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: أُخْبِرُكَ أَنَّ رُسُلِي أَتَتْنِي مِنْ قِبَلِكَ، فَزَعَمَتْ

أَنَّ قِبَلَكُمْ شَجَرَةً لَيْسَتْ بِخَلِيقَةٍ لِشَيْءٍ مِنَ الْخَيْرِ، تَخْرُجُ مِثْلَ آذَانِ الْحَمِيرِ، ثُمَّ تَشَقَّقُ مِثْلَ اللُّؤْلُؤِ، ثُمَّ تَخْضَرُّ فَتَكُونُ مِثْلَ الزُّمُرُّدِ الْأَخْضَرِ، ثُمَّ تَحْمَرُّ فَتَكُونُ كَالْيَاقُوتِ الْأَحْمَرِ، ثُمَّ تَيْنَع وَتَنْضَجُ فَتَكُونُ كَأَطْيَبِ فَالَوْذَجَ أُكِل، ثُمَّ تَيْبَسُ فَتَكُونُ عِصْمَةً لِلْمُقِيمِ وَزَادًا لِلْمُسَافِرِ، فَإِنْ تَكُنْ رُسُلِي صَدَقَتْنِي فَلَا أَرَىٰ هَذِهِ الشَّجَرَةَ إِلَّا مِنْ شَجَرِ الْجَنَّةِ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنْ عُمَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ قَيْصَرَ مِلْكِ الرُّومِ، إِنَّ رُسُلَكَ قَدْ صَدَقُوكَ، هَذِهِ الشَّجَرَةُ عِنْدَنَا، وَهِيَ الشَّجَرَةُ الَّتِي أَنْبَتَهَا اللهُ عَلَىٰ مَرْيَمَ حِينَ نُفِسَتْ بِعِيسَىٰ ابْنِهَا، فَاتَّقِ اللهَ وَلَا تَتَّخِذْ عِيسَىٰ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللهِ، فَـ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ].

وَقِيلَ: الْأَكْمَامُ رُفَاتُهَا، وَهُوَ: اللِّيفُ الَّذِي عَلَىٰ عُنُقِ النَّخْلَةِ. وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وقَتَادَةَ.

﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ ﴾ يعني: التبن.

وَقَالَ العَوْفِي، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ٱلْعَصْفِ﴾ وَرَقُ الزرع الأخضر الذي قطع رؤوسه، فَهُوَ يُسَمَّىٰ الْعَصْفَ إِذَا يَبِسَ. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَأَبُو مَالِكٍ: عَصْفُهُ: تِبْنُهُ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ: ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ يَعْنِي: الْوَرَقَ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: هُوَ رَيْحَانُكُمْ هَذَا.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عباس: ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ خَضِرُ الزَّرْعِ.

وَمَعْنَىٰ هَذَا -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ الْحَبَّ كَالْقَمْحِ وَالشَّعِيرِ وَنَحْوِهِمَا لَهُ فِي حَالِ نَبَاتِهِ عَصْفٌ، وَهُوَ: مَا عَلَىٰ السُّنْبُلَةِ، وَرَيْحَانٌ، وَهُوَ: الْوَرَقُ الْمُلْتَفُّ عَلَىٰ سَاقِهَا.

وَقِيلَ: الْعَصْفُ: الْوَرَقُ أَوَّلَ مَا يُنْبِتُ الزَّرْعُ بَقْلًا. وَالرَّيْحَانُ: الْوَرَقُ، يَعْنِي: إِذَا أَدْجَنَ وَانْعَقَدَ فِيهِ الْحَبُّ. كَمَا قَالَ زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ فِي قَصِيدَتِهِ الْمَشْهُورَةِ.

وَقُولا لَهُ: مَنْ يُنْبِتُ الحَبَّ فِي الثَّرىٰ ... فَيُصْبِحَ مِنْهُ البقلُ يَهْتَزُّ رابيا؟
وَيُخْرِجَ منْه حَبَّه في رُؤوسه؟ ... فَفي ذَاكَ آياتٌ لِمَنْ كَانَ وَاعِيَا

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ أَيْ: فَبِأَيِّ الْآلَاءِ -يَا مَعْشَرَ الثَّقَلَيْنِ، مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ- تُكَذِّبَانِ؟ قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَيَدُلُّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ بَعْدَهُ، أَيِ: النِّعَمُ ظَاهِرَةٌ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ مَغْمُورُونَ بِهَا، لَا تَسْتَطِيعُونَ إِنْكَارَهَا وَلَا جُحُودَهَا، فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَتِ الْجِنُّ الْمُؤْمِنُونَ: «اللَّهُمَّ، وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ آلَائِكَ رَبَّنَا نكذِّب، فَلَكَ الْحَمْدُ». وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: «لَا بِأَيِّهَا يَا رَبِّ». أَيْ: لَا نُكَذِّبُ بِشَيْءٍ مِنْهَا.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعَةَ، عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وهو يَقْرَأُ، وَهُوَ يُصَلِّي نَحْوَ الرُّكْنِ قَبْلَ أَنْ يُصْدَعَ بِمَا يُؤْمَرُ، وَالْمُشْرِكُونَ يَسْتَمِعُونَ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ .

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه.

اللّٰهمَّ نسألك علمًا نافعًا وعملًا صالحًا، اللّٰهمَّ فقهنا في الدين وعلمنا من التأويل واجعلنا في ذلك مصيبين يا أرحم الراحمين.

ثم هذه السورة كما ذكرت لك قبل هي في تعداد نعم الله جل وعلا وآثار رحمته ﷻ، إذ النعم من آثار الرحمة، والرحمة أثر من آثار اسم الله الرَّحمٰن؛ لأن الله جل وعلا جعل رحمة من رحمته في الأرض، فبها يتراحمون، ورحمة الله جل وعلا وسعت كل شيء؛ لهذا قال ﷻ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾﴾ فتعليم القرآن هي أعظم النعم وأعظم آثار الرحمة بما في ذلك من المصالح العظيمة الدينية في الدنيا والآخرة والدنيوية؛ فالقرآن به سعادة الناس وسعادة العباد، ولهٰذا لما أخذت به هذه الأمة جعل الله لها ذكرًا في الأولين وفي الآخرين؛ قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾[الزخرف:٤٤].

ثم بيّن سبحانه أن نعمة البيان عند الإنسان أيضًا من رحمة الله به؛ لأنه بها تحقق وصار أهلًا لأن يكون مكلفًا وأن يكون عبدًا لله جل وعلا علىٰ الاختيار قال سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾﴾.

ثم ذكر نعمة الشمس والقمر التي بدونها لا تتم حياة الإنسان؛ فقال: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾﴾.

فذكر **الآلاء الدينية** وهي القرآن وتعليم القرآن، وذكر **الآلاء الدنيوية** في خلق الإنسان وتعليمه البيان في نفسه وهو أول ما يراه الإنسان، وذكر **الآلاء التي في الآفاق** ينظر إليها في السماء وهي الشمس والقمر.

ثم بيّن جل وعلا أن النجم والشجر يسجدان له فقال: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾﴾، والنجم اختُلف فيه كما سمعت مع اتفاقهم علىٰ أن الشجر هو ما له ساق من النبات، وهو أنواع كثيرة؛ فقال: إن النجم اختلف فيه السلف فمنهم من قال: إن النجم هو النجم المعروف في السماء الذي يظهر ويغيب، وقال طائفة من السلف سمعت أسماءهم: إن النجم هو النبات الذي يمتد في الأرض ولا ساق له، وقبل

الدخول في الترجيح بين هذه الأقوال، لابد من فهمٍ لسبب قول من قال: إن النجم هو ما ليس له ساق من النبات.

ومن قال به ذهب إلىٰ أن السِّياق ذُكر فيه الشمس والقمر، والسماء أيضًا ذكرت بعد ذلك، وهذه كلها مرتفعة، والنجم يدخل في السماء، ويدخل ذكر الرحمة به في الشمس والقمر من باب الإشارة والتنبيه علىٰ الأدنىٰ بذكر الأعلىٰ؛ لهذا نظروا إلىٰ أن التأسيس وذكر شيء جديد أولىٰ من ذكر شيء مكرر، وخاصة أن هذه الآية فيها ذكر السجود، والسجود لما ذكر الشجر وهو له ساق فقال: حتىٰ ما ليس له ساق، مما هو ممتد في الأرض مما قد لا يُتصور أنه يسجد السجود الذي فيه الانحناء فإنه يسجد، فلهذا قال من قال: إن النجم هو النبات الممتد في الأرض والشجر هو ما له ساق وقد يعظم جدًّا فيكون دوحة عظيمة.

فلهذا القول: بأن النجم هو ما يمتد في الأرض وما ليس له ساق من النبات له أساسه من اللغة وله شواهده الكثيرة من اللغة، واختيار أحد التفاسير اللغوية باللفظ لأجل السياق، هذا كثير في تفاسير السلف.

والراجح من القولين: هو أن النجم هو النجم الذي في السماء، ووجه الترجيح: أن النجم الذي خلقه الله جل وعلا في السماء والشجر الذي خلقه الله جل وعلا في الأرض اشتركا في السجود؛ فهذا يمثل البعد وهذا يمثل القرب، وإذا كان كذلك؛ فإن الإنسان الذي عُلّم البيان وأنعم عليه بالشمس وبالآلاء الكثيرة ورُحم فإنه لابد له من أن يسجد كما سجد ذلك الكوكب البعيد، وكما سجدت هذه الشجرة القريبة.

والوجه الثاني من الترجيح: أن الشجر جنس والنجم جنس علىٰ هذا التفسير. والواو الأصل فيها أنها للمغايرة. لمغايرة الأجناس أو لمغايرة الذوات لا لمغايرة الصفات، فلهذا لما ذكر السجود. والسجود يكون للذوات كان الأنسب ان يكون هناك استقلال في ذكر جنس الساجدين، وهذا هو الذي أشار إليه ابن كثير في استدلاله بآية سورة الحج حيث ذكر الله جل وعلا الأجناس فقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾[الحج]؛ فذكر أن الله جل وعلا تسجد له هذه الأجناس علىٰ اختلافها.

فالشمس والقمر هذان جنسان، والنجم علىٰ بعده والجبال أيضًا جنسان، والشجر والدواب وكثير

من الناس ذكر صنوف ذلك.

وهذا أبلغ في ذكر معنىٰ السجود لله جل وعلا لأن سجود النجم وسجود الشجر يعنىٰ النجم الذي في السماء والشجر الذي في الأرض أبلغ في الدلالة والتأثير فيما يجب من سجود الإنسان طوعًا واختيارًا.

الوجه الثالث من الترجيح: أن اعتبار السياق القرآني والاستعمال في القرآن أولىٰ من إهماله.

وكلمة (النجم) في القرآن من أوله إلىٰ آخره جاءت بمعنىٰ النجم الذي في السماء فإعمالها أولىٰ من أن يؤسس في ذلك معنىٰ جديد ولو كان له وجه في اللغة.

فدلت هذه الأوجه الثلاثة علىٰ أن الراجح أو الصواب أن النجم هو النجم الذي في السماء وليس المراد به النبات الذي لا ساق له الممتد في الأرض.

قال: ﴿يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ وسجود النجم والشجر والشمس والقمر والجبال والدواب والسماء والأرض سجود الأشياء لله جل وعلا هو سجود حقيقي عند أهل السنة والجماعة، ويجعلون سجود غير المكلفين علىٰ ظاهره سجود يصح أن يطلق عليه سجود بمعنىٰ الكلمة.

وكلمة (يسجد) والسجود سجود الكائنات لله جل وعلا اختلف فيه المفسرون علىٰ اختلاف مذاهبهم.

فقالت طائفة : إن السجود هو السجود الحقيقي علىٰ ما سيأتي بيانه.

وقال آخرون وهو مذهب الأشاعرة وجماعات أيضًا من غيرهم وأظنه مذهب المعتزلة: أن السجود معناه ظهور آثار الصنعة فيها الذي من أجله إذا تأمله المتأمل سجد لله جل وعلا، وهذا لا شك أنه فيه صرف للفظ عن الظاهر والتفسير بشيء لا قرينة له تمنع منه.

القول الأول: هو الصواب وهو الذي عليه السلف وأئمة الإسلام من أن السجود سجود حقيقي.

ولفظ (السجود) مما اختلف فيه الاستعمال، فاستعمل السجود في المعنىٰ اللغوي. واستعمل السجود في معنىٰ عرفي. واستعمل السجود في معنىٰ شرعي. وكل هذه حقيقة.

الأول: حقيقة لغوية.

الثاني: حقيقة عرفية .

والثالث: حقيقة شرعية.

فمعنىٰ السجود في الحقيقة اللغوية هو أن هذه الأشياء خاضعة لله جل وعلا، مطيعة، ذليلة له سبحانه،

أو تقول: **السجود في اللغة هو الخضوع والذل والتطامن لمن سُجِدَ له.**

وأما الحقيقة العرفية فإن السجود هو ال**تعظيم والخضوع والتطامن بنوع من الوصف وهو الركوع أو وضع الجبهة علىٰ الأرض**، فكل ما كان فيه انحناء في العرف عُرف العرب يقال له سجود، وهذا أخص من المعنىٰ الأول.

ثم المعنىٰ الثالث للسجود. أن السجود جاء في الشرع يعنىٰ في شريعة الإسلام بزيادة تخصيص علىٰ المعنىٰ العرفي؛ وهو أن السجود **هو تعظيم الله جل وعلا والخضوع له والتطامن بوضع الجبهة والأنف علىٰ الأرض.**

بهذا اختلف الذين قالوا: إن السجود حقيقي علىٰ هذه الأقوال الثلاثة: فمنهم من قال بالأول. وهو اللغوي. وقال به جماعات من علماء السنة وأيضًا من الأشاعرة ومن غيرهم يعنىٰ تجدوا هذا القول كثير عند المفسرين من أن السجود خضوع هذه الأشياء لله جل وعلا وذلها وتطامنها له سبحانه وتعظيمها لربها جل وعلا.

ومنهم من قال: إن السجود لمّا كان منقسمًا إلىٰ هذه الأقسام الثلاثة في إيراد اللفظ فإننا نُعمل القواعد الأصولية؛ ومنها أن الحقيقة الشرعية إذا تعارضت مع الحقيقة العرفية أو اللغوية فإننا نقدم الحقيقة الشرعية فيكون السجود هنا سجود حقيقي شرعي، وهذا يقولون: أمر غيبي لا يُعلم به كيف يكون. واستدلوا له بقول النبي عليه الصلاة والسلام لأبي ذر « يا أبا ذر أتدري أين تذهب الشمس حين تغيب؟». قال: لا يا رسول الله، قال: «تذهب فتسجد تحت العرش ثم تستأذن » فقوله: «تذهب فتسجد تحت العرش » ظاهره أن السجود حقيقي شرعي لكن الشمس والأشياء بالاتفاق ليس لها جبهة ولا أنف فيكون السجود شرعيًا؛ لكن علىٰ صفة معينة. وهذا القول رجحه عدد من أهل العلم خاصة من بعض المحققين المعاصرين؛ ولكنه ليس بذي ظهور في أقوال السلف وإنما هو إعمال للقواعد الأصولية في المسألة الخلافية.

وإذا كان المعنىٰ الشرعي للسجود وضع الجبهة علىٰ الأرض فإن المعنىٰ العُرفي أن الركوع أيضًا سجود كما قال جل وعلا: ﴿ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ ﴾[البقرة:٥٧] ادخلوا الباب سجّدا يعنىٰ راكعين، والركوع نوع من السجود؛ لهذا فإن القول الأظهر من هذين القولين في إعمال الحقيقة هو القول بإعمال الحقيقة اللغوية لا بالحقيقة الشرعية؛ يعنىٰ أن السجود حاصل علىٰ حقيقته بخضوع

الأشياء لله جل وعلا. وتعظيم هذه الأشياء لله ﷻ وتطامنها لله وذلها بين يدي الله جل وعلا علىٰ صفة لا نعلمها، كيف حقيقة هذه الصفة لا نعلمها.

سجود الإنسان لما جاء في الشرع؛ لأنه ذو جبهة وذو أنف فيكون علىٰ هذا النحو؛ لكن كيف تسجد الأشياء لله جل وعلا الله أعلم بحقيقته بالكيفية؛ لكن المعنىٰ معروف بأنه خضوعها وتطامنها وذلها تعظيمًا لله جل وعلا.

ومن الأغلاط في تفسير السجود أن يقال للسجود. أن يقال السجود هو بمعنىٰ نفوذ أحكام الله جل وعلا فيها، ونفوذ الأحكام هذا شيء مفروض، فالكل تنفذ فيه أحكام الله جل وعلا حتىٰ الكافر. والله جل وعلا حين ذكر السجود ميز بين سجود طائفة وعدم سجود طائفة فقال: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ثم قال: ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحج:١٨] يعنىٰ فلم يسجد، فنفوذ الأحكام مع أنه موجود هذا القول في بعض كتب التفسير ليس من الأقوال الجيدة أو هو غلط.

وبالمناسبة يجري علىٰ ذلك الكلام علىٰ تسبيح الكائنات ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾[الإسراء:٤٤]، ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[الجمعة:١]. التسبيح ما صفته؟ يجري عليه البحث نفسه:

فأهل السنة يقولون التسبيح علىٰ ظاهره.

والأشاعرة ومن نحىٰ نحوهم يقولون: إن تسبيح الكائنات ظهور آثار الصنعة فيها. مما يجلب للمتأمل والناظر تسبيحه لله جل وعلا.

ومثل ما ذكرت لله قول السلف وككلامهم في السجود. بأن التسبيح علىٰ ظاهره وكما جاء في الكلام ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام، ونحن مع رسول الله عليه الصلاة والسلام. (نسمع تسبيح الطعام) يعنىٰ أنه يسبح علىٰ حقيقته. وهذه مرتبط بشيء كثير لكن كما قال جل وعلا: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[الإسراء:٤٤]، كذلك ولكن لا تفقهون سجودهم؛ لأن الباب باب واحد.

قال ﷻ بعدها: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ ﴾ السماء المقصود منها واحدة السَّمٰوات السبع وسُميت سماءً لعلوها، فيقصد بالسماء الجنس يعنىٰ جنس السَّمٰوات أو واحدة السَّمٰوات؛ وذلك لأن الألف واللام فيها إما أن تكون للجنس فتشمل الجميع، وإما أن تكون للعهد فيراد منها هذا السماء المرئية.

ورفع السماء هل هو بعمد أو ليس بعمد؟ الأكثرون علىٰ أن رفع السماء بغير عمد.

وقال آخرون وهم قلة: إن رفع السماء بغير عمد تُرىٰ ولكن ثم عمد لكنها لا ترىٰ. ولهذا لما قال جل وعلا: ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾[الرعد:٢] اختلف المفسرون هل ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ راجع إلىٰ السماء؟ يعني ترون السماء أنها بغير عمد، أو راجع للعمد أنها مرفوعة بغير عمد مرئية؛ يعني ثَم عمد ليست مرئية.

والرفع رفع السماء علىٰ الصحيح مثل ما ذكرت لك أنه بغير عمد أصلًا وأن قوله: ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ ورفع السماء بغير عمد لأنها مرئية تراها أنه ليس ثم عمد. وحصول الحجة لا يكون بشيء لا يُرىٰ، وإنما يكون بشيء يُرىٰ وحصول الآية والتأمل في ذلك.

وقال: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ يعنىٰ بغير عمد كما ترون.

قال: ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾ وضع الميزان يعنىٰ جعل العدل. والميزان المراد به ما يُعدل به سواء أكان ميزانًا حقيقيًا أو كان ميزانًا حسيًا؛ الميزان الذي يُتابع به المعروف أم كان ميزانًا توزن به الأشياء مما ليس له كفتان، ولهذا قال جل وعلا: ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾[الشورى:١٧]، ﴿ أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ يعنىٰ أنزل العدل وما يتوازن وتوزن به الأمور. من أمور مختلفة؛ كالحكمة، والعقل والإدراك وغير ذلك مما يوزن به ويدخل في ذلك الميزان المعروف.

لهٰذا التفسير لما فسروا الميزان بالعدل التفسير العام؛ قالت المعتزلة: إن الميزان يوم القيامة هو العدل وليس ثم ميزان حسي له كفتان؛ لأن الأعمال لا توزن ولأنه... إلىٰ آخره. وهذا التفسير منهم له مستمسك كقاعدة أهل البدع في أنه لابد لهم من مستمسك إما لغوي أو شرعي؛ لكنه ليس مستمسكًا حقًّا وصحيحًا؛ لأن الميزان صحيح أن الميزان يطلق ويراد به العدل وأن قوله تعالىٰ: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[الأنبياء] أنه يَحتمل أن يكون الميزان هنا العدل ، وأن يكون الميزان الحسي المعروف؛ لكن في قوله جل وعلا: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم ﴾ [الأعراف]، يدل علىٰ أن الميزان يثقل، وهذا بينته السنة في أن الميزان له كفتان. ولهذا نقول في مسألة يوم القيامة: أن الميزان غلط أن يفسر بالعدل في أي موضع جاء في الآية؛ بل تفسيره بالميزان المعروف الحسي وهل هو ميزان أو موازين بحث معروف في محله.

﴿ وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ ﴾ يعنىٰ جعل الميزان بين الناس يتحاكمون إليه. أوجب الله جل وعلا عليهم العدل، وحرم عليهم الظلم.

فقال سبحانه بعدها: ﴿ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ ﴾ يعنىٰ أن لا تتجاوزوا الحد فيما أمرتم به من العدل؛ بل ألزموا العدل وأنتم منهيون عن الظلم بجميع أنواعه.

والعدل قامت عليه السَّمٰوات والأرض، وأمر الله جل وعلا به أمرًا مطلقًا دون استثناء، وجعله أول الأوامر فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾[النحل:٩٠].

والعدل وعدم الطغيان في وزن الأمور هو أساس من أساسات برهان التوحيد؛ لأن المرء إذا عدل عبد الله جل وعلا وحده دونما سواه، إذا عدل ولم يظلم لم يشرك بالله جل وعلا أحدًا، ولذلك صار الشرك ظلمًا، وهذا يعنىٰ أنه ليس بالعدل فهو ظلم وهو أقبح الظلم ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ۝١٣ ﴾[لقمان]؛ فأعظم ما به يكون الطغيان في الميزان بالشرك، فالذين أشركوا بالله جل وعلا وعبدوا معه ألهة أخرىٰ طغوا في الميزان.

والله جل وعلا جعل الميزان ليقوم الناس بالقسط كما قال سبحانه: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾[الحديد:٢٥]؛ يعني ليكون الناس فيما بينهم أهل عدل فينفون عنهم الظلم فيما يتحاكمون إليه وفيما يحكمون به في أمورهم المختلفة.

قال سبحانه: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ ﴾ يعني أنكم إذا وزنتم فكونوا أهل عدل في الوزن ﴿ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ ﴾ يعني لا تحيفوا في ذلك أو تغشوا أو تقولوا بغير الحق والقسط، وهذا يدخل فيه الموازين المعروفة يعني موازين الوزانين، والتطفيف فيها إلىٰ آخره ويدخل فيها ما هو أعم من ذلك كما ذكرت لك.

قال سبحانه جل وعلا بعدها: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ ﴾ إلىٰ آخره وتفسيرها واضح إن شاء الله تعالىٰ.

[نكتفي بهذا لأننا طولنا في التعليق، وقد نحتاج إلىٰ الرجوع إلىٰ قوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ في موضعها إن شاء الله.]

الدرس الثالث

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٨ مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢١ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٣ وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٢٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٥﴾.

يَذْكُرُ تَعَالَىٰ خَلْقَهُ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ، وَخَلْقَهُ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَهُوَ: طَرَفُ لَهَبِهَا. قَالَهُ الضَّحَّاكُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَبِهِ يَقُولُ عِكْرِمَةُ، وَمُجَاهِدٌ، وَالْحَسَنُ، وَابْنُ زَيْدٍ.

وَقَالَ الْعَوْفِي، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥﴾ مِنْ لَهَبِ النَّارِ، مِنْ أَحْسَنِهَا.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥﴾ مِنْ خَالِصِ النَّارِ. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ، وَمُجَاهِدٌ، وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخَلَقَ آدَمَ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ».

وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ رَافِعٍ، وَعَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ، كِلَاهُمَا عَنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ، بِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ.

﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ١٧﴾ يَعْنِي: مَشْرِقَي الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ، وَمَغْرِبَي الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ. وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠﴾ [الْمَعَارِجِ]، وَذَلِكَ بِاخْتِلَافِ مَطَالِعِ الشَّمْسِ وَتَنَقُّلِهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ، وَبُرُوزِهَا مِنْهُ إِلَىٰ النَّاسِ. وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾ [الْمُزَّمِّلِ]. وَهَذَا الْمُرَادُ مِنْهُ جِنْسُ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، وَلَمَّا كَانَ فِي اخْتِلَافِ هَذِهِ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، مَصَالِحُ لِلْخَلْقِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ قَالَ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٨﴾ ؟.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ أَرْسَلَهُمَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَلۡتَقِيَانِ﴾ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: أَيْ: مَنَعَهُمَا أَنْ يَلْتَقِيَا، بِمَا جَعَلَ بَيْنَهُمَا مِنَ الْبَرْزَخِ الْحَاجِزِ الْفَاصِلِ بَيْنَهُمَا.

وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ الْمِلْحُ وَالْحُلْوُ، فَالْحُلْوُ هَذِهِ الْأَنْهَارُ السَّارِحَةُ بَيْنَ النَّاسِ. وَقَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَىٰ ذَلِكَ فِي سُورَةِ «الْفُرْقَانِ» عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا

بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الْفُرْقَانِ]. وَقَدِ اخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ هَاهُنَا أَنَّ الْمُرَادَ بِالْبَحْرَيْنِ: بَحْرَ السَّمَاءِ وَبَحْرَ الْأَرْضِ، وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَعَطِيَّةَ وَابْنِ أَبْزَىٰ.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: لِأَنَّ اللُّؤْلُؤَ يَتَوَلَّدُ مِنْ مَاءِ السَّمَاءِ، وَأَصْدَافِ بَحْرِ الْأَرْضِ. وَهَذَا وَإِنْ كَانَ هَكَذَا لَيْسَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَا يُسَاعِدُهُ اللَّفْظُ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ قَدْ قَالَ: ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ أَيْ: وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا، وَهُوَ: الْحَاجِزُ مِنَ الْأَرْضِ، لِئَلَّا يَبْغِيَ هذا علىٰ هذا، وهذا علىٰ هَذَا، فَيُفْسِدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْآخَرَ، وَيُزِيلُهُ عَنْ صِفَتِهِ الَّتِي هِيَ مَقْصُودَةٌ مِنْهُ. وَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يُسَمَّىٰ بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾ أَيْ: مِنْ مَجْمُوعِهِمَا، فَإِذَا وُجِدَ ذَلِكَ لِأَحَدِهِمَا كَفَىٰ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [الْأَنْعَامِ:١٣٠] وَالرُّسُلُ إِنَّمَا كَانُوا فِي الْإِنْسِ خَاصَّةً دُونَ الْجِنِّ، وَقَدْ صَحَّ هَذَا الْإِطْلَاقُ. وَاللُّؤْلُؤُ مَعْرُوفٌ، وَأَمَّا الْمَرْجَانُ فَقِيلَ: هُوَ صِغَارُ اللُّؤْلُؤِ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وقَتَادَةُ، وَأَبُو رَزِينٍ، وَالضَّحَّاكُ. وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ.

وَقِيلَ: كِبَارُهُ وَجَيِّدُهُ. حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ. وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، وَحَكَاهُ عَنِ السُّدِّيِّ، عَمَّنْ حَدَّثَهُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَرُوِيَ مِثْلُهُ عَنْ عَلِيٍّ، وَمُجَاهِدٍ أَيْضًا، وَمُرَّةَ الْهَمْدَانِيِّ.

وَقِيلَ: هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْجَوَاهِرِ أَحْمَرُ اللَّوْنِ. قَالَ السُّدِّيُّ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: الْمَرْجَانُ: الْخَرَزُ الْأَحْمَرُ. قَالَ السُّدِّيُّ وَهُوَ الْبُسَّذ بِالْفَارِسِيَّةِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [فَاطِرٍ:١٢]، فَاللَّحْمُ مِنْ كُلٍّ مِنَ الْأُجَاجِ وَالْعَذْبِ، وَالْحِلْيَةُ، إِنَّمَا هِيَ مِنَ الْمِلْحِ دُونَ الْعَذْبِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا سَقَطَتْ قَطُّ قَطْرَةٌ مِنَ السَّمَاءِ فِي الْبَحْرِ، فَوَقَعَتْ فِي صَدَفَةٍ إِلَّا صَارَ مِنْهَا لُؤْلُؤَةٌ. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ، وَزَادَ: فَإِذَا لَمْ تَقَعْ فِي صَدَفَةٍ نَبَتَتْ بِهَا عَنْبَرَةٌ. وَرُوِيَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ نحوه.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سِنَانٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِذَا أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ، فَتَحَتِ الْأَصْدَافُ فِي الْبَحْرِ أَفْوَاهَهَا، فَمَا وَقَعَ فِيهَا -يَعْنِي: مِنْ قَطْرٍ- فَهُوَ اللُّؤْلُؤُ.

إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، وَلَمَّا كَانَ اتِّخَاذُ هَذِهِ الْحِلْيَةِ نِعْمَةً عَلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ، امْتَنَّ بِهَا عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ يَعْنِي: السُّفُنَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: مَا رَفَعَ قَلْعَهُ مِنَ السُّفُنِ فَهِيَ مُنْشَأَةٌ، وَمَا لَمْ يَرْفَعْ قَلْعَهُ فَلَيْسَ بِمُنْشَأَةٍ، وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ يَعْنِي الْمَخْلُوقَاتِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: الْمُنْشِآتُ -بِكَسْرِ الشِّينِ- يَعْنِي: الْبَادِئَاتِ.

﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٢٤﴾ أَيْ: كَالْجِبَالِ فِي كِبَرِهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَتَاجِرِ وَالْمَكَاسِبِ الْمَنْقُولَةِ مِنْ قُطْرٍ إِلَىٰ قُطْرٍ، وَإِقْلِيمٍ إِلَىٰ إِقْلِيمٍ، مِمَّا فِيهِ مِنْ صَلَاحٍ لِلنَّاسِ فِي جَلْبِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ سَائِرِ أَنْوَاعِ الْبَضَائِعِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٥﴾.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، حَدَّثَنَا الْعَوَّارُ بْنُ سُوَيْدٍ، عَنْ عَمِيرَةَ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: كُنْتُ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَلَىٰ شَاطِئِ الْفُرَاتِ إِذْ أَقْبَلَتْ سَفِينَةٌ مَرْفُوعٌ شِرَاعُهَا، فَبَسَطَ عَلَىٰ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٢٤﴾. وَالَّذِي أَنْشَأَهَا تَجْرِي فِي بَحْرٍ مِنْ بِحَوَرِهِ مَا قتلتُ عُثْمَانَ، وَلَا مَالَأْتُ عَلَىٰ قَتْلِهِ.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلٰه الأولين والآخرين، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، المصطفىٰ الأمين والمبعوث رحمة للعالمين عليه الصلاة والسلام.

أما بعد؛ فأسأل الله جل وعلا أن يجعلني وإياكم من أهل القرآن وممن ينتفع بتفسير كلام الله تعالىٰ وممن يتدبر القرآن، لأن حقيقة العلم بالقرآن إنما هي العلم بتفسير معاني كلام الله جل وعلا، فإن من فاته التفسير فاته تدبر القرآن.

يقول الله جل وعلا في هذه السورة؛ سورة الرَّحمٰن ذاكرًا أنواع قدرته وأنواع مننه علىٰ عباده:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦﴾

الإنسان المراد به هنا آدم عليه السلام بأنه هو الذي تنقّل خلقه بين أنواعٍ من الطرائق والأطوار، التي فيها خلقه من طين، وتسوية صورته من الفخار، وآدم عليه السلام خُلق علىٰ هذا الوصف يعني من الطين من جهة أن أصل التركيب الذي تركّب منه بدنه هو من التراب والطين، ولهذا ينحلُّ بعد الموت وفقد الحياة ينحل إلىٰ التراب وتختلط أجزاؤه بالتراب؛ لأن أصله منه، فالله سبحانه وتعالىٰ من عجيب صنعه أنه ابتدأ خلق الإنسان

من طين؛ كما قال سبحانه في آية السجدة: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ﴾ وبدأ خلقه؛ يعني خلق الإنسان من الطين، ثم مرَّ بالطين هذا أنواع وأطوار حتىٰ نفخ الله جل وعلا في هذا المخلوق فصار بشرًا سويًّا كما قال سبحانه: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ ﴾ يعني خلقًا وتصويرًا ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩ ﴾[الحجر]، ومن تأمل ابتداء خلق آدم عليه السلام علىٰ هٰذا النحو، وأن الله جل وعلا ركبه من ماء وطين، وبعد نفخ الرُّوح صار بشرًا سويًا علىٰ هذا النحو العجيب من التركيب، فإنه لا شكّ يوقن أن الذي جعل الإنسان هكذا هو رب العالمين، وأنه سبحانه هو الخالق الذي أنعم علىٰ الإنسان بخلقه في أحسن تقويم، وأنعم عليه بأن جعله مسوَّىٰ الصورة منفوخًا فيه من روح الله جل وعلا.

هٰذه السورة؛ سورة الرَّحمٰن فيها تعداد رحمة الله جل وعلا بعباده في الدنيا والآخرة، والنعم بأنواعها من فروع الرحمة ومن آثار الرحمة، ولهٰذا كثر في هذه السورة التأكيد علىٰ الإقرار بنعم الله وعدم التكذيب بها في قوله: ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ لأن الآلاء التي هي النعم من آثار رحمة الله جل وعلا بعباده، ورحمة الله جل وعلا بعباده، بإنعامه عليهم يكون فيما سخّر لهم ويكون في أصل خلقهم، ويكون فيما يجازيهم به في المعاد من دخول الجنة والبعد عن النار؛ فهذه الآية فيها ذكر ما امتنّ الله به علىٰ نوعي المكلّفين؛ الإنس والجن، فذكر أن خلق الإنسان من صلصال كالفخار.

والإنسان في ابتداء خلقه يمر كما ذكرت بأطوار من الطين ومن الحمأ المسنون ومن الصلصال كالفخار الذي يقبل التشكيل، والفخار يُشكل كما يريده من يُشكله كالحمأ المسنون ويختتم الأمر ربنا جل وعلا بأن نفخ فيه الروح، وهذه الحالة هي عكس حالة الممات، فإن الإنسان إذا قضىٰ الله عليه الموت فأول ما يخرج منه روحه التي هي آخر ما دخلت فيه يعني من جهة خلق آدم ثم إذا كان في الأرض تقلب في أطوار قبل أن يتحلل جسده تقلب في أطوار هي عكس الأطوار الأولىٰ حتىٰ ينتهي إلىٰ الطين المجرد الذي يكون في الأرض؛ يعني ينتفخ في الأرض ينتفخ ويكون منتفخًا كالفخار، ويكون مستعدًا لتفتته، ثم بعد ذلك يبدأ إلىٰ أن يُنهي الله جل وعلا الأمر وهذا فيه أو في قوله تعالىٰ: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾[الأنبياء:١٠٤] فيه إشارة إلىٰ المعاد، قال سبحانه هنا: ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ ﴾ فالجان جمع جني، والجن معروفون بأنهم خلق من خلق الله جل وعلا جعلهم مستترين عن الإنسان، وهذا الاستتار لأجله سمُّوا جنًّا؛ لأن مادة الجن في اللغة تقال لما استتر، ولهذا أطلق علىٰ الملائكة بأنهم

جنَّة أيضًا في قوله تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ يعني الملائكة ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[الصافات]، وهذا في أحد قولي أهل التفسير في سورة الصافات، والقول الثاني أنهم الجن المعروفون، والجن سموا بذلك لاستتارهم عن الأعين، أعين الإنسان ولعدم رؤيتهم خلق الجن كان قبل خلق الإنسان كانوا متقدمين وفي قول جمع من أهل التفسير أنهم كانوا يسكنون الأرض قبل الإنسان يعني ذكروا أشياء في ذلك قد يكون بعضها من الإسرائيليات المقصود أنه بقي من الجن إبليس فرفعه الله جل وعلا مكافئة له مع ملائكته كما قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾[الكهف:٥٠] في سورة الكهف، ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ يعني من الجن الذين هم في الأرض.

خلق الله الجن من النار في هذه الآية قال: ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ والمارج اختُلف فيه يعني من السلف إلىٰ أقوال -كما سمعت- منها قول الضحاك عن ابن عباس أنه قال: من مارج من نار الذي هو طرف اللهب، وقالوا: وقال طائفة: أن المارج من النار هو لهب النار. وقال آخرون: هو خالص اللهب؛ يعني أصله وما يشتد من اللهب، وهذا الاختلاف ذكرنا لكم مرارًا أن اصل الاختلاف في التفسير راجع إلىٰ النظر في المعنىٰ اللغوي تارة، وتارة إلىٰ ما جاء في القرآن من الأدلة الأخرىٰ في الموضوع نفسه، وتارة بالنظر إلىٰ السنة؛ فتفسير الآية ينظر فيها المفسر تارة إلىٰ الدلالة اللغوية، ومن نظر إلىٰ الدلالة اللغوية قال: المارج هو طرف اللهب؛ لم؟ لأن طرف اللهب يهتز، والمروج أو مرج الشيء يمرج فهو مارج إذا كان فيه اهتزاز، ولذلك جاء في الآية التي بعدها: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ ﴾ لأن هذا يدخل في هذا. وهذا يدخل في هذا فيكون بينهما اهتزاز ليس فبه سد واضح أن هذا نهاية الماء الحلو هو هذا. ونهاية الماء المالح هو هذا ، وإنما يدخل هذا تارة ويزيد هذا تارة ونحو ذلك مما يشبه الاهتزاز في اللسان كما سيأتي.

فإذن نظر طائفة إلىٰ المعني اللغوي فقالوا: المروج الاهتزاز، لهذا سميت الأرض المهتزة بالنبات مروج؛ لأجل اهتزازها بالنبات وعدم ثباتها علىٰ حالة واحدة.

فهذا من أسباب الخلاف في التفسير وتعدد أقوال السلف، وهي كما تعلمون من أنواع اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد؛ لأن الأصل واحد. وهو أنهم يفسرون ما دل عليه قوله: ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ مع اتفاقهم علىٰ أصل المعنىٰ.

ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام كما رواه مسلم في «الصحيح» من حديث عائشة ورواه غيره

ونقله ابن كثير هنا أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: « خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخَلَقَ آدَمَ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ » وفي رواية الإمام أحمد « وخلق الجان من مارج من نار » في هذا الحديث نفسه، والمعنىٰ متقارب فالخلق من النار قد يكون من أصلها، وقد يكون من أطرفها وذكر الأئمة -أئمة التفسير- عند قوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢ ﴾[الأعراف] أن النار فيها القوة والذكاء والاشتداد والعنفوان، وأما الطين فيه الهدوء والسكينة.

ولهٰذا صار من وصف إبليس الكبر والطيش والعجلة. وكان من وصف آدم الهدوء والسكينة والتَّواضع وعدم الكبر.

فبين الطين والنار مفارقات في الصفات وأصل التّكوين كما ذكرنا لك لما كان مختلفًا فإن صفات الإنسان غير صفات الجن؛ لأجل أن أصل التكوين مختلف فلابد أن يكون ثم مدد من أصل التكوين.

وهذا طبيعة في الإنسان حتىٰ فيما يمدِّه به من أغذية فإنه يختلف باختلاف هذه الأغذية، ولهذا صح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «السكينة في أهل الغنم، والجفاء والغلظة في أهل الإبل» وذلك لأن صفات الإبل فيها الجفاء والغلظة ومخالفة السكينة، وأما الغنم ففيها السكينة والتؤدة والنفع.. إلىٰ آخره.

وذكروا أيضًا أن من المفارقات ما بين خلق الإنسان وخلق الجن؛ يعني من الطين ومن النار. أن النار تؤثر في الطين، تتنوع حالة الطين بحسب ما يناله من النار، لهذا جعل الله جل وعلا من تأثير الجن الخفي علىٰ الإنسان أنه يُغيره، ولا شك أن تقارب الجن من الإنسان وإن لم يكن تقاربًا ما بين النار والطين يعني علىٰ الحقيقة؛ لكن باعتبار الأصل فيه هذا المعنىٰ، يعني سرعة تأثير النار في الطين من جهة القسوة والغلظة، والطين في أصله سهل التركيب ولين وغير طائش متماسك إلىٰ غير ذلك من الصفات. وانظروا بقية الكلام علىٰ ذلك في أول سورة البقرة والأعراف.

قال جل وعلا بعدها: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يعني أيها الجن والإنس؛ فبأي نعم الله جل وعلا الذي رباكم بهذه النعم من أصل خلقكم إلىٰ معادكم فبأي هذه الآلاء تكذبان؛ يعني الجنسين جنس الإنس وجنس الجن.

﴿ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ١٧ ﴾ المشرق والمغرب ما هو مكان شروق الشمس ومكان غروب الشمس،

والآيات ذكر فيها تارة المشرق والمغرب مفردًا وذكر تارة بالتثنية كما في هذه الآية ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾، وذكر تارة بالجمع ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾[المعارج:٤٠]، وهذا في أصله أن المشرق إذا أطلق مفردًا فيراد به الجنس؛ يعني جنس الملكة تشرق منه الشمس، وإذا ثني فيراد منه كما ذكر هنا مشرق الصيف ومشرق الشتاء؛ يعني أنه أخر مكان تصل إليه الشمس من جهة المشرق أو من جهة الشمال في الصيف وآخر مكان تصل إليه الشمس من جهة الجنوب في الشتاء، صار مشرقين ومغربين يعني من جهة آخر ما تصل إليه هنا وآخر ما تصل إليه هنا، تكون المشارق والمغارب بين المشرقين وبين المغربين.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾ لأن شروق الشمس وغروبها نعمة؛ ولكن من النعم العظيمة والآلاء الجسيمية أن يكون ثم مشرقان، مشرق صيف ومشرق شتاء. وأن الشمس تنتقل من هذين وأن يكون ثم مغربان؛ لهذا ذكر هنا ذكر الآلاء: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾ ذكرها بعد ذكر المشرقين والمغربين؛ لأن النعمة بحصول مشرق صيفي ومشرق شتائي وتنقل الشمس بين هذين نعمة ظاهرة بيّنة للإنسان فإن الشمس لو استمرت في مكان واحد لا تنتقل عنه لكان في هذا أضرار بالإنسان وعدم حصول مصالح كثيرة له.

قال جل وعلا بعدها: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ مرج البحرين، مرج هذه فعل ماض فاعله الله جل وعلا؛ يعني مرج الله البحرين كما قال في آية الفرقان: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾[الفرقان:٥٣]، فهو سبحانه الذي مرجها بعض الناس الذي يتصور أن مرج البحرين يعني أن البحرين لهما شيء يسمىٰ مرج أو نحو ذلك، وهذا المرج لا يلتقي بين هذا أو هذا كما ظنه يعني من لم يفهم وهذا من جهة تركيب اللغة؛ يعني ما له أساس فقوله هنا ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ ﴾ يعني أن الله جل وعلا مرجهما كما ذكرت لك فجعل مكان اتصالها بالماء في مرج يعني في اختلاط واهتزاز، فأصل مادة المرج في اللغة تدل علىٰ عدم ثبات واختلاط كما ذكرت لك واهتزاز ونحو ذلك. ولهذا يقال للفتن والقتل هرج ومرج؛ لأنه فيها دخول وخروج واهتزاز وعدم استقرار لا يعرف سببه والإنسان أعني الجان. والجان خلقت من مارج كما ذكرت لك من طرف اللهيب؛ لأجل أنه مهتز، وكذلك الأرض أيضًا تصبح مروجًا إذا صارت فيها النبات يهتز ولا تثبت علىٰ حال.

والحاجز هو الذي بين البحرين صوروه في الصور الحديثة يعنىٰ في نقطة اتصال البحر بالنهر إذا أتىٰ

النهر يصب في البحر فإن الله جل وعلا جعل هناك نقطة دخول البحر يدخل إلىٰ شيء من النهر ، والنهر يدفع ذلك ومستمر السيلان مستمر المشيء إلىٰ البحر هذه النقطة نقطة الالتقاء في الدخول والخروج هي شبيهة بلهب النار في امتدادها تارة وفي انبساطها أو في اضمحلالها تارة، مثل اللهب الممتد الطويل تارة؛ يعني كما صوروها بالصور من فوق لأن الماء يتضح الفرق ما بين هذا وهذا باللون بالعمق أو بالتداخل، وتارة ينخفض ويمتد. ينخفض ويمتد، فهو شبيه بمارج النار الذي هو طرف اللهيب المهتز، فالله سبحانه مرج البحرين؛ يعني جعل هذا يدخل في هٰذا، وجعل الماء المالح يدخل قليلًا في الحلو في الأنهار. وجعل الأنهار تصب في البحار؛ لكن بينهما برزخ لا يبغيان، فهذا لا يبغي علىٰ هذا بحيث أن الحلو يتأثر بالمالح، وكذلك لا يبغي الحلو علىٰ المالح فيغير طعمه فالمالح بقي مالحًا منذ خلق الله جل وعلا البحر، ومع كثرة مصب الأنهار في البحار وهذه الأنهار الحلوة الماء دائمًا تصب في البحار؛ لكن لم تتغير ملوحتها ولم تتأثر الكائنات الحية التي تعيش في البحار التي سخرت للإنسان، وهذا من عجائب صنع الله جل وعلا ونعمته بعباده ورحمته بهم أيضًا؛ لهذا الآية هذه فيها امتنان للعباد بقوله: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾﴾ وقول ابن جرير الذي ساقه ابن كثير لا شك أنه ليس بصواب كما ذكر الحافظ ابن كثير؛ لأن المقصود بالبحرين في هذه الآية هو البحر الحلو وهي الأنهار ، والبحر المالح التي هي البحار المعروفة.

قال سبحانه بعدها: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ يخرج منهما يعني من البحرين اللؤلؤ والمرجان، ومما اعتاده الناس وعرفوه بالواقع أن البحر الحلو لا يخرج منه يعني الأنهار والبحيرات الحلوة لا تخرج منها اللآلئ والأصداف ولا يخرج منها المرجان. ولهذا هنا سؤال معروف ومشهور عند العلماء كيف قال هنا: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ﴾ مع أن الذي يخرج منه اللؤلؤ والمرجان هو البحر المالح دون البحر الحلو؟ وقد ذكر ابن كثير هنا جوابًا عن هذا السؤال؛ وهو أن المُخرج إذا كان من أحدهما فإنه يصح أنه خرج منهما؛ لأن المثنىٰ إذا كان الفعل ينسب إلىٰ أحد الاثنين فإنه ينسب إليهما معًا، ويراد من أنه واقع من أحدهما، وذكر لك الدليل علىٰ ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ﴾[الأنعام:١٣٠] في سورة الأنعام مع أن المتفق عليه عند المحققين من العلماء والأئمة أئمة الإسلام أن الجن ليس منهم رسول وليس منهم نبي، وإنما الأنبياء والرسل من الإنسان، وهذا الظاهر

الذي ذكر اعتراض عليه طائفة من العلماء بأنه لا يمتنع أن يكون اللؤلؤ والمرجان يخرج من البحر المالح ومن الأنهار والبحار الحلوة يعني البحيرات وأيدوا هذا بظاهر اللفظ قوله: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ﴾ يعني من هٰذا وهٰذا، وقوله: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ ثم ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ﴾ يدل علىٰ أن الخروج يعني علىٰ حسب هذا القول يكون من البحرين وهذا لا يصدق عليه أنه من أحد البحرين دون الآخر، وقالوا: إن آية الأنعام: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ ويعنىٰ بها من الإنس أن هذا ليس متفق عليه؛ لأن كلمة رسل لا يعنىٰ بها أنها رسل من الله جل وعلا؛ بل المنذر رسول كما قال جل وعلا في ذكر الجن الذين سمعوا رسالة محمد عليه الصلاة والسلام القرآن ثم ولوا إلىٰ قومهم منذرين في قوله في سورة الأحقاف: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ والمنذر يحمل رسالة لهذا قالوا: أنه لو حتىٰ في آية الأنعام ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ يعني بهم النذر ولا يعنىٰ أنهم رسل من الله جل وعلا؛ بل أنهم نذر ينذرون ويبشرون، وكذلك آية سورة الشورىٰ أيضًا تدخل في هذا وهي قول الله جل وعلا في ذكر السَّمٰوات والأرض: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾، وما بث فيهما يعني في السَّمٰوات والأرض، وقال طائفة: إنما الدواب إنما هي في الأرض دون السماء ونحو ذلك مما له أمثلة في هٰذا.

والذي يظهر أن ظاهر الآية هذه أن الخروج من البحرين جميعًا قد يكون الخروج من النهر ، خروج اللؤلؤ من النهر أو خروج المرجان من النهر نادر؛ ولكن فيه امتنان بأنه يحصل هذا وقد يكون في بعض الأماكن دون بعض، وإن قلنا: إنه من أحدهما دون الآخر كما قال ابن كثير من المالح دون غيره فهذا قول مشهور عند المفسرين وعامة أهل العلم.

المرجان فسره هنا بأنه صغار اللؤلؤ أو كبار اللؤلؤ أو أنه الجوهر الأحمر الذي يسمىٰ مرجانا أيضًا، وتفسيره بأنه صغار اللؤلؤ أو كبار اللؤلؤ هذا ليس بجيد؛ لأن الله جل وعلا ذكر منته علىٰ عباده بذكر خروج نوعين من الجواهر والحلية التي يتحلون بها وهي خروج اللؤلؤ وخروج المرجان، فلو كان المرجان من جنس اللؤلؤ لصار الإنعام فيه تكرير والأصل خلافه؛ ولهذا قال هنا: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ ﴾ وهذا جنس يشمل جيد اللؤلؤ ويشمل رديء اللؤلؤ ويشمل الصغير والكبير، فالمرجان ليس صغار اللؤلؤ وليس كبار اللؤلؤ، وإنما هو حلية حمراء معروفة تسمىٰ بهذا الاسم.

ويدل عليه أيضًا أن أصل التسمية مرجان يعني في ترجمتها أو في تعريبها مرجان فيها المرج الذي ذكرته لك وهو الاختلاط، والمرجان لونه ليس واحدًا بخلاف: يعنىٰ ليس نقيًا واحدًا لا شائبة فيه لا اختلاط فيه بخلاف اللؤلؤ فإنه يعني اللؤلؤ الطبيعي فإنه متقارب اللون لا اختلاط فيه.

قال بعدها: ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾ أيضًا من نعم الله ورحمته بعباده أنه سخر لهم الجواري وهىٰ السفن الكبيرة المصنوعة المنشأة في البحر كأنها الجبال، ولا شك أن المنة بهذه كبيرة ولكن كيف حصلت المنة حتىٰ أضاف الله جل وعلا السفن هذه إلىٰ نفسه بقوله: ﴿ وَلَهُ ﴾ هم الذين يملكونها لكن قال: ﴿ وَلَهُ ﴾ فأضافها إلىٰ نفسه جل وعلا يعنىٰ مكًا لأن حقيقة التسخير هي منة من الله جل وعلا ابتداءً وإنتهاءً، فالسفينة أو الجواري هذه الكبيرة التي في البحر كأنها الجبال وخاصة في الزمن الماضي التي تعتمد علىٰ الأشرعة واتجاه الهواء إلىٰ آخره، الإنسان لم يصل إلىٰ صنع السفينة بنفسه وإنما أول من صنع السفينة نوح عليه السلام بتعليم الله جل وعلا له كما قال سبحانه: ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ﴾[القمر] وهي السفينة، وكانت فلكًا عظيمًا ركب فيها نوح ومن معه بتعليم الله جل وعلا كما قال في سورة هود: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ويصنع الفلك هم ما يدرون ايش يعمل؛ لأن الله أوحىٰ إليه أن أصنع هذا ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾[هود:٣٧]، فهذه منّة أن ابتداء صنع الفلك هو كابتداء خلق الدابة التي تركب عليها من الحمير والبغال والجمال إلىٰ آخره. فالجميع بابه واحد، لذلك المنة ظاهرة في ابتداء صنعها، ثم في أن البحر يحمل هذه السفينة العظيمة التي هي كالجبل، ثم أيضًا في الريح السهلة اليسيرة التي إذا قابلها الإنسان ما ضرته لكن بتوجيه الأشرعة فإنها تحرك هذا الجسم الثقيل العظيم، فإذا كل ما يتعلق بالسفن العظيمة هذه والفلك العظيمة هو من الله جل وعلا منّة ورحمة ونعمة للإنسان، ولهذا أضافها إلىٰ نفسه جل وعلا بقوله: ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ يعني اللام هنا لام الملك له سبحانه وتعالىٰ، وهذه فيها مزيد إظهار للنعمة ومزيد تقرير لخلو الإنسان من الصنعة، وأن الله جل وعلا هو الذي أنعم ويسر ذلك.

البحر ترمي فيه المسمار ويذهب؛ لكن ملايين أو آلاف الكيلوات أو أكثر أو ملايينها ما تغوص في القاع، البحر عجيب من جهة توزيعه في الأرض أيضًا من العجائب توزيع الماء في الأرض وكيف أنه يمكن الوصول إلىٰ أي مكان.

النبي عليه الصلاة والسلام تصلهم بضائع الهند ، المهند سيف مصنوع في الهند له صنعة خاصة ماضي وقوي، كذلك يأتيهم الطيب من العود الألوّة ومن المسك ونحو ذلك من الهند هذا كيف يحمل ، يحمل في البحار، كذلك تأتيهم الملابس الخاصة وبعض الجلود... إلخ من أماكنها عن طريق البحار، فعلىٰ ضعف ذاك الزمان وقدرات أهله فلمّنة واضحة والنعمة عظيمة فكيف بنا في هذا الزمان الذي ما تصل الأشياء إلا عن طريق البحار والآن الإنسان يعنىٰ يتأمل نعمة الله جل وعلا عليه بالبحر وبالريح وبهذه السفن والمراكب ، ويعلم أن أكثر الأشياء التي بين يديك الآن ما تنقل بالسيارات ولا بالطائرات بإيش ؟ إنما هي بالسفن فقوله سبحانه هنا: ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ فيه أيضًا تذكير بالنعمة نعمة ما تنقله هذه السفن وهذه الفلك وهذه الجواري العظيمة التي تنقل الأشياء التي يعيشها الإنسان، الآن لو توقفت السفن الناس أصابهم ضرر عظيم. عظيم بل قد تهلك فئام منهم خاصة في المناطق التي ليس فيها اكتمال من جهة أسباب الحياة.

نحمد الله جل وعلا علىٰ آلائه ولا نكذب بشيء من آلاء ربنا، فله الحمد سبحانه علىٰ ما أعطىٰ، وله الحمد سبحانه علىٰ ما سخر وله الحمد سبحانه علىٰ ما جعل من آلاء تسخيرًا لنا، ونسأله سبحانه أن يجعلنا من الشاكرين.

[الأسئلة]

سؤال ():.....

الجواب: الجواري جمع جارية، كما قال في سورة الحاقة أو في سورة المعارج: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾ [الحاقة]؛ لأنها تجرىٰ.

سؤال ():....

الجواب: لا شك أن من وجوه إعجاز القرآن أنه اشتمل علىٰ ذكر أشياء في الخلق لم تُعرف حقائقها التامة لأكثر الناس في الأزمنة الأولىٰ إنما ظهرت في هذا الزمان فالعرب عرب قريش بل العرب جميعًا والناس في ذلك الزمان من والروم والفرس إلىٰ آخره ما يعرفون حقائق صنع الله جل وعلا في ملكوته في السماء والأرض.

في القرآن جاءت آيات كثيرة منها ذكر الأمور الكونية سواء في السماء أو في الأرض، ما يتعلق

بالسحاب وبالهوىٰ وبالضغط والجاذبية، ما يتعلق بالأرض بالوديان بالأشجار بالصخور بالمعادن، أنواع كثيرة من ذلك في القرآن آيات كثيرة لا شك تذكر خلق الله جل وعلا لهذه الأمور.

أتىٰ أهل العصر ونظروا إلىٰ أنه مما يقوي الحجة بالقرآن علىٰ أهل هذا الزمان الذي اتسم أهله بالاهتمام بالأمور النظرية العلمية أنهم يذكرون هذه الأشياء، وأن القرآن ذكر فيه هذا وأن الأمور العلمية مسبوق الناس إليها قد ذكرت في القرآن إلىٰ آخره.

والناس أهل الإعجاز العلمي أو الذين يتكلمون في المحدثات العلمية هذه ما بين متوسع جدًّا فيها لأدنىٰ دلالة أو لتوهم دلالة، وما بين منكر لها أو أنه يقول ليست هذه أصلًا من التفسير.

والحق في ذلك هو الوسط وهو أن دلالة الآية إذا كانت ظاهرة علىٰ المراد فإن القرآن نزل بلسان عربي مبين، فنحمل دلالته العلمية ونقول: إن هذه الآية هي الدلالة لكن بشرط أن لا تناقض ما أجمع عليه الصحابة رضوان الله عليهم لأن الصحابة لا يجمعون علىٰ خلاف الحق، فما أجمع عليه الصحابة حجة، فإذا كانت الآية محتملة وما فيه نقل كثير عن الصحابة فيها فإن تفسيرها بالأشياء العلمية لدلالة الآية الظاهرة عليها لا بأس به.

النوع الثاني: أن تكون الدلالة ضعيفة أو الدلالة غير واضحة أو محتملة، فإن تفسيرها بالأشياء العلمية لا شك أنه حمل القرآن علىٰ أمور علمية؛ لكن بدلالة ضعيفة وهذا غير صحيح، هذا من جهة دلالة الآية.

لكن من جهة أخرىٰ يحملون الآيات تارة علىٰ نظريات لم تثبت، أو أنها ثبتت ولكنها باقية علىٰ أنها نظرية والنظرية لا يقطع بها، النظرية قابلة للأخذ والرد، لهذا هناك تفسيرات قديمة تغيرت طبية ونحو ذلك فسرت بها آيات ثم ظهرت في النظريات الجديدة الآن أن تلك النظريات القديمة ليست بقوية، كما حدثني أحد الأطباء؛ بل أنها ضعيفة، فحمل القرآن علىٰ نظرية مجردة لم تصبح حقيقة علمية ثابتة لا مطعن فيها أو لا إشكال فيها أو لا تغيير فيها فإنه أيضًا من التعدي علىٰ تفسير القرآن.

القرآن حق وما خلق الله جل وعلا في ملكوته أيضًا حق والحق لا يناقض الحق بل يؤيده ويدل عليه، والقرآن ليس كتابًا للأمور العلمية ليس كتاب فلك ولا كتاب زراعة ولا كتاب جيولوجيا ولا كتاب طب، القرآن كتاب هداية كما قال سبحانه ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء:٩]، ﴿ قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى

ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾[الجن]، القرآن نزل للهداية، لهداية الناس، هٰذه الهداية تارة يكون من أدلتها الأمور الكونية، خلق الله جل وعلا والتدبر فيه وما خلق الله في السَّمٰوات وما خلق الله في الأرض وأنواع ذلك، فإذا كان علىٰ هذا النحو يفسر القرآن بالأمور العلمية للدلالة علىٰ إعجازه أولًا ثم ليكون المتلقي للقرآن آخذًا هدايته وقويًا في قبولها هذا لا بأس به؛ لكن الناس مثل ما ذكرت لكم بعضهم يوغل ويزيد، وبعضهم يقول: لا هذه الأمور كلها يرفضها والصواب هو الوسط بين الفئتين.

الدرس الرابع

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّ جَمِيعَ أَهْلِ الْأَرْضِ سَيَذْهَبُونَ وَيَمُوتُونَ أَجْمَعُونَ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ السموات، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ، وَلَا يَبْقَىٰ أَحَدٌ سِوَىٰ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ؛ فَإِنَّ الرَّبَّ -تَعَالَىٰ وَتَقَدَّسَ- لَا يَمُوتُ، بَلْ هُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ أَبَدًا.

قَالَ قَتَادَةُ: أَنْبَأَ بِمَا خَلَقَ، ثُمَّ أَنْبَأَ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ كَانَ.

وَفِي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ: يَا حَيُّ، يَا قَيُّومُ، يَا بديع السَّمٰوات وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، بِرَحْمَتِكَ نَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لَنَا شَأْنَنَا كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنَا إِلَىٰ أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَلَا إِلَىٰ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ.

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: إِذَا قَرَأْتَ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾، فَلَا تَسْكُتْ حَتَّىٰ تَقْرَأَ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾.

وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الْقَصَصِ:٨٨]، وَقَدْ نَعَتَ تَعَالَىٰ وَجْهَهُ الْكَرِيمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِأَنَّهُ ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ أَيْ: هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُجَلَّ فَلَا يُعْصَىٰ، وَأَنْ يُطَاعَ فَلَا يُخَالَفُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الْكَهْفِ:٢٨]، وَكَقَوْلِهِ إِخْبَارًا عَنِ الْمُتَصَدِّقِينَ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الْإِنْسَانِ:٩].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ ذُو الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ.

وَلَمَّا أَخْبَرَ عَنْ تَسَاوِي أَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ فِي الْوَفَاةِ، وَأَنَّهُمْ سَيَصِيرُونَ إِلَىٰ الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَيَحْكُمُ فِيهِمْ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ قَالَ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾.

وقوله: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنْ غِنَاهُ عَمَّا سِوَاهُ وَافْتِقَارِ الْخَلَائِقِ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْآنَاتِ، وَأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُ بِلِسَانِ حَالِهِمْ وَقَالِهِمْ، وَأَنَّهُ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شأن.

قَالَ الْأَعْمَشِ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾، قَالَ: مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُجِيبَ دَاعِيًا، أَوْ يُعْطِيَ سَائِلًا، أَوْ يَفُكَّ عَانِيًا، أَوْ يَشْفِيَ سَقِيمًا.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: كُلَّ يَوْمٍ هُوَ يُجِيبُ دَاعِيًا، وَيَكْشِفُ كَرْبًا، وَيُجِيبُ مُضْطَرًّا وَيَغْفِرُ

ذَنْبًا.

وَقَالَ قَتَادَةُ: لَا يستغني عنه أهل السَّمٰوات وَالْأَرْضِ، يُحْيِي حَيًّا، وَيُمِيتُ مَيِّتًا، وَيُرَبِّي صَغِيرًا، وَيَفُكُّ أَسِيرًا، وَهُوَ مُنْتَهَىٰ حَاجَاتِ الصَّالِحِينَ وَصَرِيخُهُمْ، وَمُنْتَهَىٰ شَكْوَاهُمْ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أبو اليمان الحِمْصيّ، حدثنا حرير بْنُ عُثْمَانَ، عَنْ سُوَيْد بْنِ جَبَلَةَ -هُوَ الْفَزَارِيُّ- قَالَ: إِنَّ رَبَّكُمْ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ، فَيُعْتِقُ رِقَابًا، وَيُعْطِي رِغَابًا، وَيُقْحِمُ عِقَابًا.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو الغُزّي، حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ الْفِرْيَابِيُّ، حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ بَكْرٍ السَّكْسكي، حَدَّثَنَا الْحَارِثُ بْنُ عَبْدَةَ بْنِ رَبَاحٍ الْغَسَّانِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ مُنِيبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُنِيبٍ الْأَزْدِيِّ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا ذَاكَ الشَّأْنُ؟ قَالَ: «أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا، وَيُفَرِّجَ كَرْبًا، وَيَرْفَعَ قَوْمًا، وَيَضَعَ آخَرِينَ».

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ الْوَاسِطِيُّ، قَالَا: حَدَّثَنَا الْوَزِيرُ بْنُ صَبِيحٍ الثَّقَفِيُّ أَبُو رَوْحٍ الدِّمَشْقِيُّ -وَالسِّيَاقُ لِهِشَامٍ- قَالَ: سَمِعْتُ يُونُسَ بْنَ مَيْسَرَةَ بْنِ حَلْبَسٍ، يُحَدِّثُ عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ قَالَ: «مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا، وَيُفَرِّجَ كَرْبًا، وَيَرْفَعَ قَوْمًا، وَيَضَعَ آخَرِينَ».

وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ عَسَاكِرَ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عَمَّارٍ، بِهِ. ثُمَّ سَاقَهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هَمَّامٍ الْوَلِيدِ بْنِ شُجَاعٍ، عَنِ الْوَزِيرِ بْنِ صَبِيحٍ قَالَ: وَدَلَّنَا عَلَيْهِ الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنْ مُطَرِّفٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرَهُ. قَالَ: وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ. يَعْنِي إِسْنَادَهُ الْأَوَّلَ.

قُلْتُ: وَقَدْ رُوِيَ مَوْقُوفًا، كَمَا عَلَّقَهُ الْبُخَارِيُّ بِصِيغَةِ الْجَزْمِ، فَجَعَلَهُ مِنْ كَلَامِ أَبِي الدَّرْدَاءِ، فالله أعلم.

وَقَالَ الْبَزَّارُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّىٰ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَارِثِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْبَيْلَمَانِيِّ، عَنْ أَبِيهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾، قَالَ: «يَغْفِرُ ذَنْبًا، وَيَكْشِفُ كَرْبًا».

ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَحَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُوسَىٰ، عَنْ أَبِي حَمْزَةَ الثُّمَالي، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ اللهَ خَلَقَ لَوْحًا مَحْفُوظًا مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ، دَفَّتَاهُ يَاقُوتَةٌ حَمْرَاءُ، قَلَمُهُ نُورٌ، وَكِتَابُهُ نُورٌ، عَرْضُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، يَنْظُرُ فِيهِ كُلَّ يوم ثلثمائة وَسِتِّينَ نَظْرَةً، يَخْلُقُ فِي كُلِّ نَظْرَةٍ، وَيُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ، وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد؛ ففي هذه السورة العظيمة سورة الرَّحمٰن يقول الله جل وعلا: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ وهذه الآية فيها بيان صفات الله جل وعلا التي هي صفات الكمال والجلال والجمال له سبحانه فقوله: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ فيها أن البقاء والآخرية صفة لله جل وعلا، وأن الخلق مكتوب عليها الفناء، وأن كل مخلوق لابد أن يحل عليه الموت إما متقدمًا أو إما متأخرًا، و﴿مَنْ عَلَيْهَا﴾ يعني من علىٰ الأرض كل من عليها يعني من علىٰ الأرض لابد أن يحل عليه الفناء كما قال جل وعلا: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[الزمر] والميت هو الذي سيموت أو الذي مات فعلًا، والفناء كتب علىٰ الناس جميعًا بل علىٰ الخلائق جميعًا.

والفناء الذي سيحل بكل مخلوق هنا في هذه الآية جعل علىٰ من علىٰ الأرض وهذا ليس له مفهوم؛ لأن من ليس علىٰ الأرض فإنه لن يكتب عليه الفناء وذلك لقوله بعدها: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾، وبقاء وجه الله جل وعلا الكريم؛ يعني بقاء ربنا ﷻ فكل من سوىٰ الله جل وعلا فإنه سيحل عليه الموت كما قال جل وعلا في آية الزمر: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾، وكذلك في قوله جل وعلا: ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر] حيث أن الله جل وعلا يسأل بعد أن أهلك وأمات ثم يجيب نفسه الكريمة ﷻ له وتقدست أسماؤه، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ﴾ في آية الزمر اختلف فيه العلماء علىٰ أقوال ومن أحسنها أن المستثنىٰ هنا المراد به أرواح الشهداء فإنهم لا يصعقون؛ لأنه قال: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ﴾ فقوله هنا جل وعلا: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ دليل علىٰ توحّد الله جل وعلا بالبقاء، والبقاء من صفات الله جل وعلا الذاتية إذ هو جل وعلا الأول والآخر «هو الأول فليس قبله شيء وهو الآخر فليس بعده شيء» فالبقاء لله وحده وكل مخلوق لابد أن يحل عليه الصعق أو الموت أو الفناء، وفي الآية دليل علىٰ افتقار المخلوقات لله جل وعلا، إذ الميت لا شك أنه محتاج، وأنه ضعيف وأنه لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا.

وأما قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ فإن المراد ببقاء الوجه هنا بقاء الرب ﷻ، وإنما ذكر

الوجه علىٰ عادة العرب في ذكرها الوجه وإرادتها الذات، ووجه الله جل وعلا هنا صفة من صفاته الجليلة العظيمة، وإثبات صفة الوجه جاء في آيات كثيرة كقوله جل وعلا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨]، وكقوله ﷻ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[البقرة:١١٥] علىٰ أحد تفسيرين، وفي مثل قوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾[الإنسان].

في اللغة (الوجه) هو أنه ما تحصل به المواجهة يعني فيما لو حصلت، وهذا ينفي أن يكون شيئًا كليًّا كما هي تعبيرات أهل الكلام وإنما هو جل وعلا ذات متصفة بصفات جليلة كريمة وفي قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ بالخطاب للنبي عليه ﷺ فيه التنبيه علىٰ أن الحاجة حاجة النبي عليه الصلاة والسلام لله جل وعلا تؤذن بحاجة من هو دونه؛ لأن ذكر الربوبية فيه ذكر تعلق الخلق بالله جل وعلا، فلما ذكر ضعفهم في قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦﴾ نبه بالربوبية علىٰ أن الخلق متعلقون بالله جل وعلا إيجادًا وعدمًا وتحقيقًا لمصلحتهم ودفعًا لما يضرهم.

ثم وصف وجهه الكريم بقوله: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ و(ذو) بمعنىٰ صاحب يعني الوجه الذي صاحبه الجلال والإكرام وهو صفة للوجه لا صفة للرب؛ لأنه رفع قال: ذو فتكون نعتًا لوجه: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ وليست صفة للرب ذي الجلال والإكرام، ومعنىٰ الجلال والإكرام هنا ما جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال في وصف الرب جل وعلا: «حجابه النور لو كشف لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه»، فالله جل وعلا حجابه النور وهو نور وجهه نوره لو كشف الحجاب لأحرق ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه والجلال في اللغة هو التعظيم مع الخوف أو التعظيم مع المهابة، ولذلك نقول صفات الجلال يعني الصفات التي فيها عظمة الله جل وعلا وفيها كبرياؤه وفيها قهره ونحو ذلك، فوجه الرب ﷻ ذو العظمة لهذا ذكر ابن عباس تفسيرها بقوله: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ يعني ذو العظمة والكبرياء.

أما الإكرام يعني من صاحبه الكرم، ولا شك أن الله جل وعلا هو الكريم وأن صفات الرب ﷻ كريمة يعني لا تماثلها صفة؛ بل هي البالغة في الكمال نهايته والبالغة في الجمال والجلال والكمال نهايته، وهذا معنىٰ الإكرام يعنىٰ البالغ في صفه هذا نهاية الكمال في الصفة.

وهذا يشعر أيضًا بضعف المخلوق فيما يتصف به من صفات.

وأما قوله جل وعلا: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ فذكر سبحانه أنه لربوبيته وأنه هو الواحد في ربوبيته وهو المدبر لهذا الملكوت، فإنه يُسأل يطلبه خلقه ما يحتاجون إليه في أمر دنياهم من صحة وسلامة وسعة رزق وولد ونحو ذلك.

وكذلك يطلبون ما فيه سلامتهم عند لقائه من مغفرة الذنب والتجاوز والعفو وغير ذلك.

والسؤال سؤال الرب جل وعلا من أعظم العبادات ولهذا جاء في الحديث «من لم يسأل الله يغضب عليه» وسؤال الرب جل وعلا محبوب له، فالعبد كلما كان أذل إلىٰ الله جل وعلا وأكثر سؤال وإلحاح في الطلب من الكريم سبحانه كلما كان أقرب إلىٰ المولىٰ جل وعلا، وإجابة السؤال من آثار الربوبية ولهذا عمّ هنا فقال: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ومن في السَّمٰوات هم الملائكة، وما شاء الله من الخلائق، ومن في الأرض هم جميع من في الأرض من المسلمين والكفار ومن الصالحين ومن العصاة، ومن الذين سدّدوا ومن المجترحين للسيئات، لهذا في الآيات عموم أن الجميع يسأل الرب جل وعلا والله ﷻ يجيبهم، لهذا صارت إجابة السؤال من آثار الربوبية، فلا تختص بمسلم دون كافر؛ بل الكافر يسأل ربه ويدعوه والله جل وعلا يُعطىٰ الكافر سؤاله ويعطىٰ المشرك سؤاله، وذلك لأن إجابة السؤال ليست من آثار الألوهية، ولكن من آثار الربوبية، والربوبية عامة للجميع والله ﷻ هو رب الخلق أجمعين.

لهذا إبليس سأل ربه فأجابه الله جل وعلا في سؤاله؛ يعني لما سأل التأخير إلىٰ يوم القيامة ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ ﴾[الإسراء] وغير ذلك من الآيات: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾[الأعراف]، والكافر أيضًا يسأل فيجاب.

فأفراد الربوبية منها إجابة السؤال، ومنها الرزق إن الله جل وعلا يرزق، ومنها معافاة المرض، فقد يسأل الكافر ربه أن يعافيه من المرض فيجاب السؤال، يسأل الكافر ربه جل وعلا أن يرزقه فيجاب في سؤاله سواءً كان مضطرًا أو غير مضطر والاضطرار صفة زائدة.

فإذن قوله جل وعلا: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ هذا لأجل ربوبيته سبحانه لهم فإن الجميع يتوجهون إليه بالسؤال.

وقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ (كل) هذه لما أضيفت إلىٰ اليوم الذي هو ظرف زمان انتصبت علىٰ الظرفية كما هو مقرر في موضعه في النحو، وقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ ذكر لك بعض الآثار في ذلك

والأحاديث المرفوعة أن من شأنه ﷻ أن يغفر ذنب إلىٰ آخره.

يعني ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ تنوع أفعال الله جل وعلا من إعطاء الأرزاق والمعافاة من الأمراض ومغفرة الذنوب والصحة وإعطاء الولد والتيسر إلىٰ الخير وصرف الشر والأذىٰ ونحو ذلك. فالله جل وعلا يجيب من سأله، فهو ﷻ يدبر أمر هذا الملكوت وأمر الخلق، فهو يأمر وينهىٰ في ملكوته، ويأمر بالأشياء الكونية العامة وكذلك يأمر بما فيه صلاح المخلوق، وينهىٰ عن أشياء في كونه، وكذلك فيما فيه صلاح المخلوق. فالله جل وعلا أفعاله في تدبيره لملكوته لا تنتهي، وهذه مرتبطة بكلماته الكونية جل وعلا، لهذا كلماته الله الكونية لاتنفذ، ولو كام البحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله كما قال جل وعلا: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾[الكهف] وكذلك قوله جل وعلا في سورة لقمان: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾[لقمان:٢٧] يعنىٰ الكلمات الكونية لأنه سبحانه كل يوم هو في شأن، فيأمر وينهىٰ ويدبر أمر هذا الملكوت؛ فيغفر ذنبًا ويجيب سؤالًا ويعطىٰ محرومًا ويشفىٰ مريضًا وينبت زرعًا وينزل غيثًا ويرسل عاصفًا إلىٰ آخره. فكل هذه بكلمات الله جل وعلا الكونية وأوامره في ملكوته تنفذها ملائكة الرَّحمٰن جل وعلا فهو سبحانه كل يوم هو في شأن.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾، قَالَ: وَعِيدٌ مِنَ اللهِ لِلْعِبَادِ، وَلَيْسَ بِاللهِ شُغْلٌ وَهُوَ فَارِغٌ. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ: هَذَا وَعِيدٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: قَدْ دَنَا مِنَ اللهِ فَرَاغٌ لِخَلْقِهِ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ أَيْ: سَنَقْضِي لَكُمْ.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: سَنُحَاسِبُكُمْ، لَا يَشْغَلُهُ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، يُقَالُ: «لِأَتَفَرَّغَنَّ لَكَ» وَمَا بِهِ شُغْلٌ، يَقُولُ: «لَآخُذَنَّكَ عَلَىٰ غِرَّتِكَ».

وَقَوْلُهُ: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ الثَّقَلَانِ: الْإِنْسُ وَالْجِنُّ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: «يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ» وَفِي رِوَايَةٍ: «إِلَّا الْجِنَّ وَالْإِنْسَ». وَفِي حَدِيثِ الصُّورِ: «الثَّقَلَانِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ» ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ أَيْ: لَا تَسْتَطِيعُونَ هَرَبًا مِنْ أَمْرِ اللهِ وَقَدَرِهِ؛ بَلْ هُوَ مُحِيطٌ بِكُمْ، لَا تَقْدِرُونَ عَلَىٰ التَّخَلُّصِ مِنْ حُكْمِهِ، وَلَا النُّفُوذِ عَنْ حُكْمِهِ فِيكُمْ، أَيْنَمَا ذَهَبْتُمْ أُحِيطَ بِكُمْ، وَهَذَا فِي مَقَامِ الْمَحْشَرِ، الْمَلَائِكَةُ مُحْدِقَةٌ بِالْخَلَائِقِ، سَبْعَ صُفُوفٍ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَىٰ الذَّهَابِ ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ أَيْ: إِلَّا بِأَمْرِ اللهِ، ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ [الْقِيَامَةِ]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [يونس]؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الشُّوَاظُ: هُوَ لَهَبُ النَّارِ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الشُّوَاظُ: الدُّخَانُ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ: اللَّهِيبُ الْأَخْضَرُ الْمُنْقَطِعُ. وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ الشُّوَاظُ هُوَ اللَّهِيبُ الَّذِي فَوْقَ النَّارِ وَدُونَ الدُّخَانِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ سَيْلٌ مِنْ نَارٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَنُحَاسٌ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَنُحَاسٌ﴾ دُخَّانُ النَّارِ. وَرُوِيَ مِثْلُهُ عَنْ أَبِي صَالِحٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَأَبِي سِنَانٍ.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْعَرَبُ تُسَمِّي الدُّخَّانَ نُحَاسًا -بِضَمِّ النُّونِ وَكَسْرِهَا- وَالْقُرَّاءُ مُجْمِعَةٌ عَلَى الضَّمِّ، وَمِنَ النُّحَاسِ بِمَعْنَى الدُّخَانِ قَوْلُ نَابِغَةَ بني جَعْدَةَ:

يُضِيءُ كَضَوءِ سِرَاجِ السَّلِيـ ـطِ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ فِيهِ نُحَاسا

يَعْنِي: دُخَانًا، هَكَذَا قَالَ.

وَقَدْ رَوَى الطَّبَرَانِيُّ مِنْ طَرِيقِ جُوَيْبِر، عَنِ الضَّحَّاكِ؛ إِنَّ نَافِعَ بْنَ الْأَزْرَقِ سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنِ الشُّوَاظِ فَقَالَ: هُوَ اللَّهَبُ الَّذِي لَا دُخَانَ مَعَهُ. فَسَأَلَهُ شَاهِدًا عَلَى ذَلِكَ مِنَ اللُّغَةِ، فَأَنْشَدَهُ قَوْلَ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ فِي حَسَّانَ:

أَلَا مَنْ مُبلغٌ حَسَّانَ عَنِّي مُغَلْغلةً تَدِبُّ إِلَى عُكَاظِ
أَلَيْسَ أَبُوكَ فِينَا كَانَ قَيْنًا لَدَى القينَات فَسْلا فِي الحَفَاظ
يَمَانِيًّا يَظَلُّ يَشُدُّ كِيرًا وَيَنْفُخُ دَائِبًا لَهَبَ الشُّواظ

قَالَ: صَدَقْتَ، فَمَا النُّحَاسُ؟ قَالَ: هُوَ الدُّخَانُ الَّذِي لَا لَهَبَ لَهُ. قَالَ: فَهَلْ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَمَا سَمِعْتَ نَابِغَةَ بَنِي ذُبْيَانَ يَقُولُ:

يُضِيءُ كَضَوءِ سِرَاجِ السَّلِيـ ـطِ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ فِيهِ نُحَاسا

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: النُّحَاسُ: الصُّفْر، يُذَابُ فَيُصَبُّ على رؤوسهم. وكذا قال قتادة. وقال الضَّحَّاكُ: ﴿وَنُحَاسٌ﴾ سَيْلٌ مِنْ نُحَاسٍ.

وَالْمَعْنَى عَلَى كُلِّ قَوْلٍ: لَوْ ذَهَبْتُمْ هَارِبِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَدَّتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ وَالزَّبَانِيَةُ بِإِرْسَالِ اللَّهَبِ مِنَ النَّارِ وَالنُّحَاسِ الْمُذَابِ عَلَيْكُمْ لِتَرْجِعُوا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

قال جل وعلا: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ كلمة سنفرغ السين تدل على أن ما هدد الله جل وعلا به سيكون قريبًا وهو وقوع القيامة والحساب والعذاب على الكافرين ، والنعيم للمؤمنين لأن حرف السين يدل على تنفيس قريب وليس بعيدًا وكلمة ﴿نفرغ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ الفراغ لا يكون من شغل سبقه دائمًا؛ بل من سنة العرب في كلامها أن العظيم أو القوي إذا أراد أن يُهدد في شيء اقتضت حكمته أن يؤخره فإنه يقول: سأفرغ لك مع أنه ليس في شغل عنه، والله ﷻ لا يشغله شأن عن شأن ولا حال عن

حال؛ بل لو أراد أن يعذبهم أو يهلكهم فإنه سبحانه لا يشغله شيء عن شيء جل وعلا لكمال قيوميته وقهره وجبروته.

فإذًا كلمة ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ﴾ هذه تدل علىٰ عظمة الله وجبروته وقوته سبحانه وقدرته وكمال قهره لخلقه، وليست كما قد يتبادر أنه سبحانه في شغل عن إرسال العذاب عليهم أوإقامة القيامة والساعة، وهذا مر معك كلام ابن كثير ونقول طيّبة في هذا المعنىٰ، وذلك في الأصل أن الفراغ في قوله: سأفرغ لك، لا تدل علىٰ شغل قبله وإنما يقولها العظيم إذا أراد أن يُرهب وأن يخوف.

والفراغ المقصود به هنا: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ﴾ يعنىٰ في حسابكم يوم القيامة وعذابكم ونزول النكال بكم.

قال: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ٣١﴾ والثقلان تثنية ثقل والمراد بالثقلين: الجن والإنس، وهذا هو الذي عليه أهل التفسير عامة لأمرين.

الأول: أن الحديث جاء في حديث المدفون إذا ضرب بمرزبة من حديد قال: «فيسمعه كل شيء إلا الثقلين الجن والإنس»، فجاء تفسيرها فيه وفي الرواية أيضا الأخرىٰ «فيسمعه كل شيء إلا الإنس والجن». وهذا تفسير في الروايات وأيضا تفسير في الحديث نفسه فإذا جاء تفسيرها في السنة أن المراد بالثقلين الجن والإنس.

الثاني: أن الثقل هو الجمع العظيم الذي يثقل معه الشيء، والجن والإنس يعمرون الأرض فهي بهم ثقيلة، ولذلك قال جل وعلا في ذكر القيامة وإخراج الناس من قبورهم قال: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ٢﴾ [الزلزلة] يعني الناس الذين دفنوا فيها، فهم ثقل أثقلوا الأرض لكثرتهم ولكونهم يسكنون الأرض.

والتخصيص هنا ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ٣١﴾ لأجل التخويف والإرهاب وخشية الرب جل وعلا في تحصيل الاستعداد ليوم القيامة، وخص الثقلين بالفراغ هنا؛ لأن الثقلين مكلفان يعنىٰ التكليف للجن والإنس.

قوله: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣﴾ هذا المقصود به يوم القيامة، ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني يوم القيامة فتفرون من العذاب ومن الحساب فافعلوا؛ فإنه لن يحصل لكم ذلك إلا بسلطان من الله جل وعلا وهو الإذن منه سبحانه والقوة الخاصة، وذلك أن يوم القيامة تحرس الأرض وتتغير الأرض والسَّمٰوات،

تنزل الملائكة، ويحيطون بأهل الموقف ويكونون صفوفًا، جاء في الآثار أنها سبعة صفوف ولا يستطيع أحد ممن في الموقف أن يفر كما قال جل وعلا: ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ ﴾ [القيامة]، فلا مفر كما قال سبحانه: ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[التكوير]، وكما قال أيضًا جل وعلا: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ ﴾[القيامة]، يعنىٰ يستقر كل أحد فلا يستطيع أحد الهروب.

المقصود أن قوله: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ هذا خطاب للجن والإنس لأنهما المكلفون ﴿ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ﴾ يعنىٰ يوم القيامة ﴿ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

والآية هذه استدل بها في هذا العصر علىٰ بعض ما يتصل بالفضاء وبالذهاب إلىٰ طبقات السماء الدنيا ونحو ذلك من الاستدلالات التي تعلمونها ووجه ذلك أنه قال: ﴿ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾؛ ﴿ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ وتفسيرها بهذا فيه نظر ظاهر، وذلك أن الذي جاء في السنة أن الجن يركب بعضها بعضا شياطين الجن، وأنها تذهب في السماء بعيدًا حتىٰ تستمع لبعض الوحي فيدركها الشهاب، والشهاب ليس محله المكان القريب من الأرض، وإنما محله السماء الدنيا العالية، ولهذا الشهب بالاتفاق ليست في الغلاف الجوي في للأرض هي فوق ذلك، ثم هي تدخل أيضا، ربما دخلت الأرض فأصابت من أصابت.

المقصود أن ذهاب الجن في هذا الوقت إلىٰ السماء هذا يدل علىٰ النفوذ حاصل يعنىٰ نوع النفوذ؛ لكنه ليس نفوذًا كاملًا وسياق الآية كله في يوم القيامة، وهذا هو الذي ذكره لك ابن كثير فيما سمعت وهو الظاهر في سياق الآية وأنه ليس المراد بها الدنيا.

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ وهي تدل أيضًا علىٰ أن النفاذ ليس ممتنعًا؛ لأنه علقه بوجود السلطان، فالمراد كما ذكرت لك أن الآية في القيامة، وهو الهرب في ذلك اليوم وآلا يات سياقها في الوعيد والتهديد مما يحصل للكافرين.

قال جل وعلا: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ ﴾ سمعت الآثار والخلاف في قوله: ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ ﴾ والكلام فيه بما هو واضح؛ لكن ننبه هنا إلىٰ ما ساقه ابن كثير من طرف رواية نافع بن الأزرق عن ابن عباس في تفسير الآيات بالشعر، وهذه المسألة وهىٰ تفسير الآي بالشعر مما اختلف فيه العلماء المتقدمون فمنعه قوم وأجازه الأكثرون.

والذين منعوا ذلك كابن فارس اللغوي؛ وجهوا هذا المنع بأن القرآن هو الأصل، وأن فهم القرآن لا يستدل عليه بالشعر؛ لأن الشعر أقل مرتبة؛ يعني ولا يسوغ إنشاده مع القرآن؛ لأن الله جل علا نزه نبيه أن يكون شاعرًا، وكذلك القرآن ليس بالشعر، فجعل الشعر مع القرآن في نسق واحد قالوا: هذا مما ينزه القرآن عنه فالاستدلال علىٰ المعنىٰ بالبيت علىٰ معنىٰ الآية بالبيت والبيتين إذا كان ثم وضوح بدونه فهو الأولىٰ عندهم.

القول الثاني: أن الاستدلال علىٰ معاني الآي بأبيات العرب أنه لا بأس به، وذلك لأن أسئلة نافع بن الأزرق قائمة علىٰ هذا الأساس في الاستشهاد علىٰ صحة المعنىٰ بوروده في كلام العرب، وذلك أن نافع بن الأزرق وهو من رؤوس الخوارج أراد أن يسأل ابن عباس عن آيات من القرآن علىٰ أن يذكر له مصادقها من كلام العرب؛ يعني ما يصدق تفسيره من كلام العرب وابن عباس ذكر له التفسير ثم ذكر الدليل علىٰ تفسيره من أبيات العرب، فدل فعل ابن عباس علىٰ جواز الاستشهاد علىٰ صحة المعنىٰ بكلام العرب، وقالوا: إن هذا له أصل أيضًا آخر؛ وهو أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أوصىٰ في ديوان العرب كما هو معروف في القصة المشهورة لما تلا سورة النحل وجاء عند قوله تعالىٰ: ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النحل] فسأل ما التخوف ؟ فقام رجل فقال: يا أمير المؤمنين؛ التخوف عندنا أوفىٰ لغتنا التنقص وساق قول الشاعر:

تخوف الرحل منها تامكًا قردًا ... كما تخوف عود النبعة السفن

يعني أن الرحل تنقص من السنام من كثرة ما يحك في السنام.

تخوف يعنىٰ تنقص فقال عمر: عليكم بديوان العرب يعنىٰ الشعر فإن فيه معاني كلام ربكم.

فاستدل بهذا علىٰ جواز الإنشاد وهذا القول الثاني هو الذي عليه أئمة التفسير، ولهذا تجد أن ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ يورد الكثير من الأبيات في بيان معاني الآي.

[الأسئلة]

سؤال ():....

الجواب: التفسير صح؛ لكن فيه علىٰ أي حال فيها إثبات للصفة؛ يعني هي من آيات الصفات ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[القصص:٨٨] يعني إلا ما أريد به وجهه بقيت صفة الوجه، فعلىٰ أي تفسير هو المراد به الصفة فإما أن نقول: كل شيء هالك تفسرها بالموت، والهلاك علىٰ المخلوقات ويبقىٰ ربنا

جل وعلا وكل شيء هالك إلا وجه الرب جل وعلا يعني إلا هو ﷻ فيكون تفسير الهلاك يعني بالهلاك الذاتي أن الله جل وعلا يهلك الأشياء. أو أن كل عمل فهو هالك وذاهب علىٰ صاحبه لا ينفعه إلا ما أريد به وجهه ﷻ وأخلص فيه.

الدرس الخامس

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ مَعَ مَا شَاكَلَهَا مِنَ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي مَعْنَاهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ﴿١٦﴾ ﴾ [الْحَاقَّةِ]، وَقَوْلِهِ: ﴿ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الْفُرْقَانِ]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ ﴾ [الِانْشِقَاقِ].

وَقَوْلِهِ: ﴿فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾ أَيْ: تَذُوبُ كَمَا يَذُوبُ الدُّرْدِي وَالْفِضَّةُ فِي السَّبْكِ، وَتَتَلَوَّنُ كَمَا تَتَلَوَّنُ الْأَصْبَاغُ الَّتِي يُدْهَنُ بِهَا، فَتَارَةً حَمْرَاءَ وَصَفْرَاءَ وَزَرْقَاءَ وَخَضْرَاءَ، وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ الْأَمْرِ وَهَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْعَظِيمِ. وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ:

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي الصَّهْبَاءِ، حَدَّثَنَا نَافِعٌ أَبُو غَالِبٍ الْبَاهِلِيُّ، حَدَّثَنَا أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاءُ تَطِش عَلَيْهِمْ».

قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الطَّشُّ: الْمَطَرُ الضَّعِيفُ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴾، قَالَ: هُوَ الْأَدِيمُ الْأَحْمَرُ. وَقَالَ أَبُو كُدَيْنَة، عَنْ قَابُوسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾: كَالْفَرَسِ الْوَرِدِ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: تَغَيَّرَ لَوْنُهَا. وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ: كالبِرْذَون الْوَرِدِ، ثُمَّ كَانَتْ بَعْدُ كَالدِّهَانِ.

وَحَكَىٰ الْبَغَوِي وَغَيْرُهُ: أَنَّ الْفَرَسَ الْوَرِدَ تَكُونُ فِي الرَّبِيعِ صَفْرَاءَ، وَفِي الشِّتَاءِ حَمْرَاءَ، فَإِذَا اشْتَدَّ الْبَرْدُ اغْبَرَّ لَوْنُهَا.

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: تَكُونُ أَلْوَانًا. وَقَالَ السُّدِّيُّ. تَكُونُ كَلَوْنِ الْبَغْلَةِ الْوَرِدَةِ، وَتَكُونُ كَالْمُهْلِ كَدُرْدِيِّ الزَّيْتِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿كَٱلدِّهَانِ ﴾: كَأَلْوَانِ الدِّهَانِ. وَقَالَ عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ: كَلَوْنِ دُهْنِ الْوَرْدِ فِي الصُّفْرَةِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ الْيَوْمَ خَضْرَاءُ، وَيَوْمَئِذٍ لَوْنُهَا إِلَىٰ الْحُمْرَةِ يَوْمَ ذي ألوان. وقال أبو الجوزاء: في صفاء الدهن. وقال أبو صالح بن جُرَيْجٍ: تَصِيرُ السَّمَاءُ كَالدُّهْنِ الذَّائِبِ، وَذَلِكَ حِينَ يُصِيبها حَرُّ جَهَنَّمَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴿٣٩﴾ ﴾، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ

﴿٣٦﴾ [الْمُرْسَلَاتِ]، فَهَذَا فِي حَالٍ، وثَمّ حَالٌ يُسْأَلُ الْخَلَائِقُ فِيهَا عَنْ جَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الْحِجْرِ]؛ وَلِهَذِهِ قَالَ قَتَادَةُ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾، قَالَ: قَدْ كَانَتْ مَسْأَلَةٌ، ثُمَّ خُتِمَ عَلَىٰ أَفْوَاهِ الْقَوْمِ، وَتَكَلَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَا يَسْأَلُهُمْ: هَلْ عَمِلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ يَقُولُ: لِمَ عَمِلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ فَهُوَ قَوْلٌ ثَانٍ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: لَا يَسْأَلُ الْمَلَائِكَةُ عَنِ الْمُجْرِمِ، يُعْرَفُونَ بِسِيمَاهُمْ.

وَهَذَا قَوْلٌ ثَالِثٌ. وَكَأَنَّ هَذَا بَعْدَ مَا يُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَىٰ النَّارِ، فَذَلِكَ الْوَقْتُ لَا يُسْأَلُونَ عَنْ ذُنُوبِهِمْ، بَلْ يُقَادُونَ إِلَيْهَا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ أَيْ: بِعَلَامَاتٍ تَظْهَرُ عَلَيْهِمْ.

وَقَالَ الْحَسَنُ وقَتَادَةُ: يَعْرِفُونَهُمْ بِاسْوِدَادِ الْوُجُوهِ وَزُرْقَةِ الْعُيُونِ.

قُلْتُ: وَهَذَا كَمَا يُعْرَفُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْغُرَّةِ وَالتَّحْجِيلِ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ أَيْ: تَجْمَعُ الزَّبَانِيَةُ نَاصِيَتَهُ مَعَ قَدَمَيْهِ، وَيُلْقُونَهُ فِي النَّارِ كَذَلِكَ.

وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يُؤْخَذُ بِنَاصِيَتِهِ وَقَدَمِهِ، فَيُكْسَرُ كَمَا يُكْسَرُ الْحَطَبُ فِي التَّنُّورِ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: يُجْمَعُ بَيْنَ نَاصِيَتِهِ وَقَدَمَيْهِ فِي سِلْسِلَةٍ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: يُجْمَعُ بَيْنَ نَاصِيَةِ الْكَافِرِ وَقَدَمَيْهِ، فَتُرْبَطُ نَاصِيَتُهُ بِقَدَمِهِ، ويُفتل ظَهْرُهُ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو تَوْبَةَ الرَّبِيعُ بْنُ نَافِعٍ، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنِ سَلَّامٍ، عَنْ أَخِيهِ زَيْدِ بْنِ سَلَّامٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَلَّامٍ -يَعْنِي جَدَّهُ- أَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ، حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ كِنْدَةَ قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ فَدَخَلْتُ عَلَيْهَا، وَبَيْنِي وَبَيْنَهَا حِجَابٌ، فَقُلْتُ: حَدَّثَكِ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ يَأْتِي عَلَيْهِ سَاعَةٌ لَا يَمْلِكُ لِأَحَدٍ فِيهَا شَفَاعَةً؟ قَالَتْ: نَعَمْ، لَقَدْ سَأَلْتُهُ عَنْ هَذَا وَأَنَا وَهُوَ فِي شِعَارٍ وَاحِدٍ، قَالَ: «نَعَمْ حِينَ يُوضَعُ الصِّرَاطُ، وَلَا أَمْلِكُ لِأَحَدٍ فِيهَا شَفَاعَةً، حَتَّىٰ أَعْلَمَ أَيْنَ يُسْلَكُ بِي؟ وَيَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ، حَتَّىٰ أَنْظُرَ مَاذَا يُفْعَلُ بِي -أَوْ قَالَ: يُوحَىٰ- وَعِنْدَ الْجِسْرِ حِينَ يَسْتَحِدُّ وَيَسْتَحِرُّ» فَقَالَتْ: وَمَا يَسْتَحِدُّ وَمَا يَسْتَحِرُّ؟ قَالَ: «يَسْتَحِدُّ حَتَّىٰ يَكُونَ مثل شفرة السيف، ويستحر حتىٰ يكون مِثْلَ الْجَمْرَةِ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُجِيزُهُ لَا يَضُرُّهُ، وَأَمَّا الْمُنَافِقُ فَيَتَعَلَّقُ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَوْسَطَهُ خَرَّ مِنْ قَدِمِهِ فَيَهْوِي بِيَدِهِ إِلَىٰ قَدَمَيْهِ، فَتَضْرِبُهُ

الزَّبَانِيَةُ بِخُطَّافٍ فِي نَاصِيَتِهِ وَقَدَمِهِ، فَتَقْذِفُهُ فِي جَهَنَّمَ، فَيَهْوِي فِيهَا مِقْدَارَ خَمْسِينَ عَامًا». قُلْتُ: مَا ثِقَلُ الرَّجُلِ؟ قَالَتْ: ثِقَلُ عَشْرِ خَلِفَاتٍ سِمَانٍ، فَيَوْمَئِذٍ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ.

هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ جِدًّا، وَفِيهِ أَلْفَاظٌ مُنْكَرٌ رَفْعُهَا، وَفِي الْإِسْنَادِ مَنْ لَمْ يُسَمّ، وَمِثْلُهُ لَا يُحْتَجُّ بِهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أَيْ: هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ بِوُجُودِهَا هَا هِيَ حَاضِرَةٌ تُشَاهِدُونَهَا عِيَانًا، يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَتَصْغِيرًا وَتَحْقِيرًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ أَيْ: تَارَةً يُعَذَّبُونَ فِي الْجَحِيمِ، وَتَارَةً يُسْقَوْنَ مِنَ الْحَمِيمِ، وَهُوَ الشَّرَابُ الَّذِي هُوَ كَالنُّحَاسِ الْمُذَابِ، يُقَطِّعُ الْأَمْعَاءَ وَالْأَحْشَاءَ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غَافِر].

وَقَوْلُهُ: ﴿ءَانٍ﴾ أَيْ: حَارٌّ وَقَدْ بَلَغَ الْغَايَةَ فِي الْحَرَارَةِ، لَا يُسْتَطَاعُ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ قَدِ انْتَهَىٰ غَلْيُه، وَاشْتَدَّ حَرُّهُ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَالْحَسَنُ، وَالثَّوْرِيُّ، وَالسُّدِّيُّ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: قَدْ أَنَىٰ طَبْخُهُ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ السموات وَالْأَرْضَ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ: يُؤْخَذُ الْعَبْدُ فيحرّكُ بِنَاصِيَتِهِ فِي ذَلِكَ الْحَمِيمِ، حَتَّىٰ يَذُوبَ اللَّحْمُ وَيَبْقَىٰ الْعَظْمُ وَالْعَيْنَانِ فِي الرَّأْسِ. وَهِيَ كَالَّتِي يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾. والحميم الآن: يَعْنِي الْحَارَّ. وَعَنِ الْقُرَظِيِّ رِوَايَةٌ أُخْرَىٰ: ﴿حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ أَيْ: حَاضِرٌ. وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ زَيْدٍ أَيْضًا، وَالْحَاضِرُ، لَا يُنَافِي مَا رُوِيَ عَنِ الْقُرَظِيِّ أَوَّلًا أَنَّهُ الْحَارُّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾﴾ [الْغَاشِيَة] أَيْ حَارَّةٍ شَدِيدَةِ الْحَرِّ لَا تُسْتَطَاعُ. وَكَقَوْلِهِ: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الْأَحْزَاب:٥٣] يَعْنِي: اسْتِوَاءَهُ وَنُضْجَهُ. فَقَوْلُهُ: ﴿حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ أَيْ: حَمِيمٌ حَارٌّ جِدًّا. وَلَمَّا كَانَ مُعَاقَبَةُ الْعُصَاةِ الْمُجْرِمِينَ وَتَنْعِيمُ الْمُتَّقِينَ مِنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَلُطْفِهِ بِخَلْقِهِ، وَكَانَ إِنْذَارُهُ لَهُمْ عَذَابَهُ وَبَأْسَهُ مِمَّا يَزْجُرُهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي وَغَيْرِ ذَلِكَ، قَالَ مُمْتَنًّا بِذَلِكَ عَلَىٰ بَرِيَّتِهِ: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن وأشهد محمدًا عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه

وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد؛ فيقول الحق جل جلاله وتقدست أسماؤه: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ ﴾ (فإذا) هذه يكثر مجيئها في القرآن بعد سياق وتأتي معها الفاء التي تُشعر بالفجائية، فإذا هنا فيها فجاءة كقول القائل: خرجت فإذا الرجل؛ يعنىٰ أنه تفاجأ به، وفي هذا لطيفة من جهة البلاغة وهىٰ أن هذا الأمر يحصل فجأة دون مقدمات وهو انشقاق السماء، وأنه إذا حصل ذلك فإنه يترتب عليه أنه لا يسأل أحد عن ذنبه لا ومن الإنس ولا ومن الجن وكأنه ترتب سريع؛ يعني هذا يتلو هذا مع أن بينهما مدة طويلة كما سيأتي ما يبعث علىٰ التأمل والالتفاف لهذا الخبر العظيم.

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾ انشقاق السماء يعنىٰ أنها تنفطر وتنشق وتتغير هيئتها كما قال جل وعلا: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ ﴾[الانشقاق]؛ يعنىٰ أنها أذنت لربها فأطاعت أمره وحُقَّ لها أن تطيع أمر الجبار جل جلاله.

وانشقاق السماء ليس علىٰ مرحلة واحدة بل هو يأتي علىٰ أشياء لهذا في الآيات التي ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليست هي علىٰ باب واحد فثم انشقاق للسماء بين النفختين قال جل وعلا: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ ﴾[الانفطار]، وقال: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ ﴾، وهنا ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ فهذه الحال مؤذنة بتغير السماء وتبديلها وتغير الأرض أيضًا وتبديلها كما قال سبحانه: ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾[إبراهيم]، فهذا التغيير بين النفختين نفخة الصعق ونفخة البعث، فإن تغيير المعالم، معالم الأرض ومعالم السماء وتفجير البحار وتناثر الكواكب يكون قبل نفخة البعث وبعد نفخة الصعق؛ يعني في الأربعين التي بينهما فيها تحصل الأمور العجيبة وتتغير معالم الأرض وتتغير معالم السماء، فهذا انشقاق.

وثَم انشقاق آخر يكون بعد اجتماع الناس في العرصات وهو المراد بقوله جل وعلا: ﴿ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفرقان] تشقق السماء بالغمام هذا تشقق آخر لنزول الملائكة، ثم أيضًا ثم تشقق لنزول الجبار جل وعلا لفصل القضاء بين العباد.

فإذن قوله: ﴿ ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ هذا يعنىٰ أنها تتغير فتكون انفطرت متغيرة في لونها، متغيرة في هيئتها،

متغيرة في كواكبها، ولك أن تنظر إليها علىٰ أنها الآن ليست بذات رتوق ولا ذات اختلاف؛ لكن إذا كان يوم القيامة فإنها تختلف وتتناثر أجزاؤها.

والسماء المقصود بها هنا ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ المقصود بها السَّمٰوات؛ لأنها تتغير كما دل عليه قوله جل وعلا: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾[إبراهيم:٤٨]، فالسَّمٰوات بأجمعها تبدل لأن الله جل وعلا يغير الحياة فيكون ثم أمر جديد في السماء وأمر جديد أيضًا في الأرض فإذا الآيات التي ساقها ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليست علىٰ باب واحد؛ بل هي في أحوال.

قوله: ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾ سمعت الأقوال الكثيرة في معنىٰ (وردة)، وتمثيل ذلك وتشبيهه بالدهان. والمقصود منها يعنىٰ ما يجمع هذه الأقوال أن حصول الانفطار والانشقاق في السماء يكون علىٰ أنحاء، وتغير في الألوان وليس دفعة واحدة؛ بل أنها تذوب، وتكون حمراء، وتكون صفراء، وغير ذلك من الألوان؛ يعني أنها في تلون الورد أو في تلون الغرس أو في تلون الفرس أو في نحو ذلك من الألوان المتغيرة. فليست علىٰ نحو واحد في تغيرها لذلك شبهها بالدِّهان ، والدهان متغير الألوان.

وأقوال السلف التي ذكرها تدور حول هذا المعنىٰ.

قال: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ذكر هذه الآية في سورة الرَّحمٰن وتكرار ذلك؛ لأن الآلاء التي هي النعم نعم الرب جل وعلا ليست مختصة بما فيه قوام الإنسان في بدنه ومعاشه وكسبه ورزقه؛ بل من أعظم آلاء الله جل وعلا ونعمه علىٰ عباده أن علمهم القرآن وأن أنزل عليهم دينه وبعث إليهم رسله، وأيضًا أن أخبرهم من نعمه أن أخبرهم بالجنة وما فيها، وبالنار وما فيها، ومن نعمه أيضًا أنه أخبرهم بما يكون يوم القيامة من الأهوال الشداد التي تبعثهم يعني لو تأملوها بعين البصيرة لبعثتهم علىٰ أخذ العدَّة وعدم التهاون في الأمر العظيم؛ لهذا نزول القرآن نبأ عظيم ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ ﴾[النبأ] وكذلك البعث والجنة والنار نبأ عظيم أيضًا هم فيه مختلفون. وقال جل وعلا: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [ص].

فإذن آلاء الله جل وعلا ليست مختصرة علىٰ النعم الدنيوية بل أعظم الآلاء ، وأعظم النعم القرآن وما فيه من الوعد والوعيد والبشارة والإنذار، فإن هذا من أعظم نعم الله جل وعلا، فنعمة الله الإسلام والقرآن والتذكر هذه آلاء تحتاج إلىٰ شكر وإلىٰ رعاية.

ولهذا صار من أعظم العقوبة أن يسلب المرء الاعتبار بآلاء الله جل وعلا، ومن أعظم الخذلان أن يخذل العبد فينظر إلىٰ آلاء الله فلا يقيم لها وزنًا، وينظر إلىٰ آيات الله فلا تُحدث لها اعتبارًا هذا قسوة في القلب، والقلب يقسو حتىٰ يكون كالحجارة أو أشد من الحجارة قسوة.

فإذا كان كذلك فإن هذه الآية في هذه السورة وتكرارها يحتاج منك إلىٰ تأمل في أن آلاء الله جل وعلا فيما أخبر عن صفاته، وما أخبر عن الجنة والنار وعما يحدث يوم القيامة أنها لابد لها من وقفة وتأمل في نعمة الله أن قص ذلك، وما يحدثه ذلك القصص والخبر من حيطة وحذر أن يكون الإنسان مع الهالكين.

فلهذا تكررت في هذه الآيات التي فيها ذكر ما يكون يوم القيامة، قال جل وعلا بعدها: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ (فيومئذ) يعني يوم انشقاق السماء وانشقاق السماء هو أحد ما يكون في اليوم الآخر، واليوم الآخر يشمل ما بين نفخة الصور إلىٰ استقرار أهل الجنة في الجنة جميعًا واستقرار أهل النار في النار جميعًا.

وباعتبار آخر يدخل فيه أحوال القبر يعني من جهة الإيمان؛ الإيمان باليوم الآخر.

فقوله: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ يعنىٰ يوم انشقاق السماء وهو يوم طويل يوم واحد تحصل فيه أشياء كثيرة وهو خمسون ألف سنة قال: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ ﴾ يعني مما يحصل في ذلك اليوم الذي تنشق فيه السماء.. أنه لا يسأل عن ذنبه أحد من المكلفين من الإنس والجن وهذه الآية سئل عنها ابن عباس رضىٰ الله عنهما وهل فيها مخالفة للآيات الأخر التي فيها أنهم يسألون ويحاسبون وكذلك قوله: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[المرسلات] يعني لا يحصل منهم نطق ولا اعتذار ولا معاذير ولا جواب ولا سؤال؛ وذكر لك هنا ابن كثير أقوال السلف في هذا ، وهي علىٰ أنحاء؛ يعني الأقوال مختلقة فمنهم يعنىٰ من أهل العلم بالتفسير من المتقدمين والمتأخرين حمل هذه الآية علىٰ ظاهرها من عدم السؤال؛ ويقولون: إن المسلم والكافر جميعًا لا يسألون وإنما يقررون بأعمالهم، وهذا معنىٰ السؤال وهذا معنىٰ الحساب أنه تقرير للأعمال كما جاء في الحديث «عملت يوم كذا وكذا وكذا» عملت دون هل عملت. عملت كذا وكذا وفي هذه الآية ينفي السؤال: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ فهذا قول من أقوال السلف وهو قول وجيه يعني في هذه الآية؛ لكنه لا يصلح تفسيرًا لقوله: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾؛ لأن ذلك في حال دون حال.

والقول الثاني فيما ذكره: أن هذا في حال أنه تمر بالمكلفين في عرصات القيامة أحوال فيحاسبون وتكون عرضتان جدال ومعاذير ثم الحساب، ثم بعد ذلك لا يتكلم أحد من الجن والإنس، كل يأخذ جزاءه، وهذا كقوله جل وعلا: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾[الحجر] والسؤال هنا عما كانوا يعملون ليس سؤال جواب، وإنما هو سؤال تقرير وهذا هو الموافق لمعنىٰ الحساب وهو تقرير العبد بأعماله حتىٰ إذا نفىٰ قال لا أعمل لم أعلم كذا وكذا قال الله جل وعلا له: هل ترتضي لك أو عليك شاهدًا من نفسك قال نعم يا ربي فيأمر الله جل وعلا بدنه فينطق جلده وتنطق أعضاؤه بما كان يعمل كما قال جل وعلا: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[فصلت] الآيات.

فهٰذا نوع مما يحصل يوم القيامة وهو أن الحساب فيه تقرير الأعمال، فثم تقرير للأعمال وسؤال بمعنىٰ التقرير، عملت كذا وكذا أو أعملت كذا وكذا بمعنىٰ أنّك عملت هذا الشيء ليقرر العبد وتكون الحجة عليه قائمة.

والقول الثالث في الآية: أن عدم السّؤال: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ فهذا المراد به سؤال الذُّنوب وليس سؤال الحساب علىٰ ظاهر الآية ﴿ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ ﴾، وإذا كان كذلك فكيف يعرف المذنب من غيره يعرفون بالسيمىٰ بالعلامة كما قال جل وعلا بعدها: ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾ والمؤمن كذلك يُعرف بسمته قال الحسن وقتادة في سيما المجرمين: يعرف المجرمون باسوداد الوجوه وزرقة العيون وهذا أخذًا من الآيات في ذلك يعنىٰ ليس اجتهادًا منهم بل من الآيات في ذلك كقوله جل وعلا: ﴿ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾[طه] فهذه سمة والسمة الثانية والعياذ بالله أنها تسود وجوههم كما قال سبحانه: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾[آل عمران]، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعدها: (قُلْتُ: وَهَذَا كَمَا يُعْرَفُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْغُرَّةِ وَالتَّحْجِيلِ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ.) وهذا ليس علىٰ وجه الاقتصار يُعرفون بالغرة والتحجيل وأيضًا يعرف المؤمنون بغير ذلك، فثم سيمىٰ كثيرة يعطيها الله جل وعلا لأهل الإيمان كما أن ثم علامات وسمات كثيرة يميز الله جل وعلا بها أهل الكفران والعصيان يعنىٰ من الكفرة ذكر هنا الغرة

والتحجيل وذلك علىٰ ما جاء في حديث أبي هريرة المعروف وأيضًا يعرفون ببياض وجوههم ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[آل عمران] ويعرف المطيع بصفات كثيرة.

فإذًا قوله هنا: (كَمَا يُعْرَفُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْغُرَّةِ وَالتَّحْجِيلِ) ليس علىٰ الاقتصار عليه؛ بل هذه سمة من السمات لكن اللي جاء في الآيات هذه ﴿ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ ﴾ يعنىٰ في تحديده بالمجرمين

بقىٰ علىٰ قوله: ﴿ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴿٣٩﴾ ﴾ أن الحساب علىٰ كثرة المكلفين يكون دفعة واحدة في سرعة عظيمة كما قال جل وعلا في وصف نفسه العلية وهو يحاسب خلقه ﷻ قال: ﴿ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾[الأنعام] فسبحانه يحاسب العباد؛ لكن في سرعة يحاسب الجميع جميع الخلائق من الجن والإنس يحاسبون، قال سبحانه بعدها: ﴿ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ ﴾ والمجرم هو من قام به الإجرام، والإجرام والجرم. الإجرام مصدر أجرم يجرم من الجرم وهو الخطيئة، والمراد بالخطيئة هنا الشرك الأكبر والكفر؛ لأن الأصل أن الموحد يعني من مات علىٰ التوحيد فإنه لا يعذب العذاب الأبدي، ولهذا ذكر جل وعلا بعدها قال: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾، قال: ﴿ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ ثم قال: ﴿ يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ فمثل هذه الآية لا يصلح الاستدلال بها علىٰ مطلق العصاة كما أنه ربما استدل بها بعض الوعاظ ونحو ذلك، لا يصح الاستدلال بها علىٰ العصاة؛ لأن هذه سياق الآية يدل علىٰ أنها في المكذبين بالنار ﴿ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ ﴾ من هم المجرمون؟ قال بعدها: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ والمسلم مادام أنه باق علىٰ إسلامه ومعه بقية من إيمان فهو مصدق بالحنة ومصدق بالنار لا يكذب بشيء من ذلك، ﴿ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾ يعني يُجر تجر ناصيته يُدفع ويجر بقدمه ويعذب أو تجمع هذه وهذه علىٰ الأقوال التي سمعت، والناصية مقدمة الإنسان، والأقدام معروفة جمع قدم وهي العضو المعروف يعنىٰ الرجل سميت قدمًا لتقدمها الإنسان في مشيه.

﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ﴾ جهنم من أسماء دار العذاب وهي النار وهىٰ سقر، ولها أسماء كثيرة وتعداد الأسماء لتعداد الصفات أو لتعدد طبقات النار، فأسماء النار مختلفة إما لتباين صفاتها، وإما لتباين طبقاتها وهي دركات كما أن الجنة درجات.

قال سبحانه: ﴿ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ﴿٤٤﴾ ﴾ يطفون بينها يعني بين جهنم وبين حميم آن، والحميم الآن في جهنم، وإذن هم منها وإليها لا يخرجون منها أبد الآبدين.

والحميم الآن ذكر عدة أقوال فيها، ومن أجودها أن الآن هو شديد الحرارة المغلي كما هو قول الجمهور في تفسير الآية.

نكتفي بهذا.

الدرس السادس

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾﴾.

قَالَ ابْنُ شَوْذب، وَعَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ فِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُصَفًّى، حَدَّثَنَا بَقِيَّة، عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي مَرْيَمَ، عَنْ عَطِيَّةَ بْنِ قَيْسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾: نَزَلَتْ فِي الَّذِي قَالَ: أَحْرِقُونِي بِالنَّارِ، لَعَلِّي أُضِلُّ اللهَ، قَالَ: تَابَ يَوْمًا وَلَيْلَةً بَعْدَ أَنْ تَكَلَّمَ بِهَذَا، فَقَبِلَ اللهُ مِنْهُ وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عَامَّةٌ كَمَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ، يَقُولُ تَعَالَىٰ: وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَهُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ، عَزَّوَجَلَّ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النَّازِعَاتِ]، وَلَمْ يَطْغَ، وَلَا آثَرَ الدُّنْيَا، وَعَلِمَ أَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ، فَأَدَّىٰ فَرَائِضَ اللهِ، وَاجْتَنَبَ مَحَارِمَهُ، فَلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ، كَمَا قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ.

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي الْأَسْوَدِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ الْعَمِّي، حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَان الْجَوْنِي، عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ أَبِيهِ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ عَزَّوَجَلَّ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ».

وَأَخْرَجَهُ بَقِيَّةُ الْجَمَاعَةِ إِلَّا أَبَا دَاوُدَ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، بِهِ.

وَقَالَ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي مُوسَىٰ، عَنْ أَبِيهِ -قَالَ حَمَّادٌ: وَلَا أَعْلَمُهُ إِلَّا قَدْ رَفَعَهُ- فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ قَالَ: جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ لِلْمُقَرَّبِينَ، وَجَنَّتَانِ مِنْ وَرِقٍ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا بْنُ يَحْيَىٰ بْنِ أَبَانٍ الْمِصْرِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي مَرْيَمَ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي حَرْمَلَة، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَار، أَخْبَرَنِي أَبُو الدَّرْدَاءِ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ يَوْمًا هذه الآية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾، فَقُلْتُ: وَإِنْ زَنَىٰ أَوْ سَرَقَ؟ فَقَالَ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾، فَقُلْتُ: وَإِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقَ؟ فَقَالَ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾. فَقُلْتُ: وَإِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: «وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي الدَّرْدَاءِ».

وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي حَرْمَلَة، بِهِ وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ أَيْضًا عَنْ مؤمِّل بْنِ هِشَامٍ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ، عَنِ الجُرَيري، عَنْ مُوسَىٰ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، بِهِ. وَقَدْ رُوِيَ مَوْقُوفًا عَلَىٰ أَبِي الدَّرْدَاءِ. وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ لم يزْنِ وَلَمْ يَسْرِقْ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَهِيَ مِنْ أَدَلِّ دَلِيلٍ عَلَىٰ أَنَّ الْجِنَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِذَا آمَنُوا وَاتَّقَوْا؛ وَلِهَذَا امْتَنَّ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الثَّقَلَيْنِ بِهَذَا الْجَزَاءِ فَقَالَ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾.

ثُمَّ نَعَتَ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ فَقَالَ: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾ أَيْ: أَغْصَانٍ نَضِرَة حَسَنَةٍ، تَحْمِلُ مِنْ كُلِّ ثَمَرَةٍ نَضِيجَةٍ فَائِقَةٍ، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾. هَكَذَا قَالَ عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ وَجَمَاعَةٌ: إِنَّ الْأَفْنَانَ أَغْصَانُ الشجر يَمَسُّ بعضُها بَعْضًا.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ، حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ قُتَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ النُّعْمَانِ، سَمِعْتُ عِكْرِمَةَ يَقُولُ: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾، يَقُولُ: ظِلِ الْأَغْصَانِ عَلَىٰ الْحِيطَانِ، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ الشَّاعِرِ حَيْثُ يَقُولُ:

مَا هاجَ شَوقَكَ مِنْ هَديل حَمَامَةٍ ... تَدْعُو عَلَىٰ فَنَن الغُصُون حَمَامَا
تَدْعُو أَبَا فَرْخَين صَادَفَ طَاوِيًا ... ذَا مِخْلَبَيْنِ مِنَ الصُّقُورِ قَطَامَا

وَحَكَىٰ الْبَغَوِيُّ، عَنْ مُجَاهِدٍ، وَعِكْرِمَةَ، وَالضَّحَّاكِ، وَالْكَلْبِيِّ: أَنَّهُ الْغُصْنُ الْمُسْتَقِيمُ طِوَالًا.

قَالَ: وَحَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشَجُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾: ذَوَاتَا أَلْوَانٍ.

قَالَ: وَقَدْ رُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَالْحَسَنِ، وَالسُّدِّيِّ، وخُصَيف، وَالنَّضْرِ بْنِ عَرَبِيٍّ، وَأَبِي سِنَان مِثْلُ ذَلِكَ. وَمَعْنَىٰ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ فِيهِمَا فُنُونًا مِنَ الْمَلَاذِّ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَالَ عَطَاءٌ: كُلُّ غُصْنٍ يَجْمَعُ فُنُونًا مِنَ الْفَاكِهَةِ، وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾: وَاسِعَتَا الْفِنَاءِ.

وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ صَحِيحَةٌ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهَا، وَاللهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾ يُنْبِئُ بِسِعَتِهَا وَفَضْلِهَا وَمَزِيَّتِهَا عَلَىٰ مَا سِوَاهَا.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَسْمَاءَ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ -وَذَكَرَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَىٰ- فَقَالَ: «يَسِيرُ فِي ظِلِّ الفَنَن مِنْهَا الرَّاكِبُ مِائَةَ سَنَةٍ -أَوْ قَالَ: يَسْتَظِلُّ فِي ظِلِّ الفَنَن مِنْهَا مِائَةُ رَاكِبٍ- فِيهَا فِرَاشُ الذَّهَبِ، كَأَنَّ ثَمَرَهَا القِلال».

رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ يُونُسَ بْنِ بُكَيْرٍ، بِهِ.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠﴾ أَيْ: تَسْرَحَانِ لِسَقْيِ تِلْكَ الْأَشْجَارِ وَالْأَغْصَانِ فَتُثْمِرُ مِنْ جَمِيعِ الْأَلْوَانِ، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِحْدَاهُمَا يُقَالُ لَهَا: «تَسْنِيمٌ»، وَالْأُخْرَىٰ «السَّلْسَبِيلُ».

وَقَالَ عَطِيَّةُ: إِحْدَاهُمَا مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَالْأُخْرَىٰ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ.

وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢﴾ أَيْ: مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الثِّمَارِ مِمَّا يَعْلَمُونَ وَخَيْرٍ مِمَّا يَعْلَمُونَ، وَمِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خطر علىٰ قلب بشر، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٣﴾.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْحَكَمِ بْنِ أَبَانٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: مَا فِي الدُّنْيَا ثَمَرَةٌ حُلْوَةٌ وَلَا مُرَّةٌ إِلَّا وَهِيَ فِي الْجَنَّةِ حَتَّىٰ الْحَنْظَلَةُ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِمَّا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْأَسْمَاءُ، يَعْنِي: أَنَّ بَيْنَ ذَلِكَ بَوْنًا عَظِيمًا، وَفَرْقًا بَيِّنًا فِي التَّفَاضُلِ.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

اللّٰهمَّ إن نسألك علمًا نافعًا وعملًا صالحًا، اللّٰهمَّ فتقبل منا وأجب سؤالنا يا كريم.

أما بعد؛ فهذه الآيات العظيمة من هذه السورة الكريمة سورة الرَّحمٰن ذكر الله جل وعلا فيها ثمرة الإيمان والخوف من الجليل ﷻ؛ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ واللام هنا في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ هي لام الاختصاص؛ لأن الجنة ملكًا لله جل وعلا، وأما المخلوق المؤمن في الجنة. فالجنة له اختصاصًا يعني خصه الله جل وعلا بها.

والخوف في قوله: ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ الخوف درجات كما أن الثواب بالجنة أيضا درجات، وقد ذكر لك الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ شيئًا في سبب نزول هذه الآية وأنها نزلت في أبي بكر أو نزلت في الرجل الذي خاف، وهذه كلها لا تصح، والصحيح أن هذه الآية عامة لا تخص بسبب نزول، وإلا فالرواية في أنها نزلت في أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مشهورة، فالخوف في قوله جل وعلا: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ الخوف المراد منه أنه خاف الشرك بالله جل وعلا؛ فوحد الرب ﷻ يعنىٰ خاف أثر الشرك خاف عقاب الشرك خاف العذاب خاف الله جل وعلا أن يغضب عليه، إذا لم يُطع رسوله عليه الصلاة والسلام، صار إذا

الخوف المراد به أن كل من يدخل الجنة فلابد أن يكون خائفًا من الله جل وعلا، وهذا هو الخوف الواجب علىٰ كل عبد، فلا يحصل الإسلام ولا الإيمان إلا بخوف من الله سبحانه الذي هو أصل الخوف؛ يعني مطلق الخوف فلابد منه؛ ولكن أهله بعد ذلك فيه درجات عظيمة يعظم في قلوب بعض العباد حتىٰ يخاف أن يهِمّ بالشيء مما لا يرضىٰ الله جل وعلا أو أن يقصر في شيء أمر الله جل وعلا به.

فالمقصود من ذلك أن الخوف في هذه الآية كما هو معتقد أهل الحق أنه درجات ليس الناس فيه سواء، وبعضهم أكثر وأعظم فيه من بعض فالجنتان اختصهما الله جل وعلا لمن خاف.

لهذا ذكر لك ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن جنتين لأهل اليمين وأن جنتين للمقربين، وكل من أهل اليمين والمقرّبين لابد له من خوف من الله جل وعلا، وأهل اليمين منهم المقتصدون وأيضًا منهم من ظلم نفسه فغفر الله جل وعلا له فطهّره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن أصناف الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف، صنفان في الجنة وصنف في النار، فاللذان في الجنة ما أخبر الله جل وعلا به في سورة الواقعة، فذكر طائفة المقربين، وذكر أهل اليمين وهذا هو الذي يدخل في قوله جل وعلا: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[فاطر:٣٢].

فالمقتصدون هو أعلىٰ أهل اليمين مرتبة، وأيضًا الظالم لنفسه غفر الله جل وعلا له أو طهره بذنوبه فعاقبه في الدنيا أو في البرزخ أو في عرصات القيامة أو بعذاب النار أو كُفرت عنه سيئاته بأنواع من المكفرات هؤلاء عندهم خوف من الله جل وعلا حملهم علىٰ الإسلام، حملهم علىٰ محبة النبي ﷺ وعلىٰ طاعة الله جل وعلا في الجملة، لهٰذا فإن الخوف مقامات والجنان متنوعة وأهلها ليسوا سواء في الجنة بل بعضها فوق بعض.

وأما قوله: ﴿ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾ فابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أعرض عن معنىٰ مقام ربه؛ يعني ما المراد بمقام، في قوله: (مقام) هذه ميم المصدر الميم في بعض الأقوال، ويكون المعنىٰ: ولمن خاف قيام ربه هذا هو القول الأول فيها، ولمن خاف قيام ربه، ويعنىٰ بقيام الله جل وعلا ما دل عليه قوله سبحانه: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ ﴾[الرعد:٣٣]؛ يعني قيامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ كل نفس وأنه الحفيظ جل وعلا، وأنه القيوم وذلك يفضي إلىٰ يعنىٰ معرفة ذلك والعلم به يفضي إلىٰ مراقبته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فإذن يكون هنا القول الأول. أن المقام بمعنىٰ قيام الله جل وعلا علىٰ كل نفس فمن استحضر هذا

وعظمه، فإنه يخاف الله جل وعلا، فذكر الشيء يعنىٰ القيام كسبب للخوف؛ يعني خاف لأجل أن الله قائم علىٰ كل نفس فاستعظم ذلك واستحضره فخاف ربه جل وعلا من أن يقصر في فرائضه أو أن يقتحم محارمه جَلَّ جَلَالُهُ.

القول الثاني: أن معنىٰ مقام ربه هو مقام العبد بين يدي ربه سبحانه؛ كما دل عليه قوله جل وعلا: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾[المطففين] يعني خاف قيامه بين يدي الله جل وعلا وحساب الرب له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والقول الثالث: هو أن مقام الله بمعنىٰ عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو ما يستحقه جل وعلا، فالمقام يطلق ويراد به ما يستحقه صاحب المقام أو عظمة المقام؛ فيكون معنىٰ ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾ يعني لمن خاف عظمة ربه ﴿جَنَّتَانِ ﴾.

وهذه ثلاثة أقوال لأهل العلم وكلها متقارب دل عليه ما دل من آيات القرآن الكريم.

وقوِّي الأول بذكر الربوبية بعده؛ لأن قيام الله جل وعلا علىٰ كل نفس بما كسبت هذا من آثار ربوبيته سبحانه علىٰ عباده، ولذلك هنا ذكر الربوبية لمناسبتها لهذا المعنىٰ، وهذا لا ينافي أيضًا القولين الآخرين.

﴿جَنَّتَانِ ﴾ هاتان الجنتان. ذكر لك ما رواه البخاري وغيره قال: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ عَزَّوَجَلَّ إِلَّا رِداءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ».

الجنة معروفة. لكن هنا وقفة لماذا خُصت؟ لماذا جُعل للخائف من الله جل وعلا جُعلت له جنتان، وليست جنة واحدة؟ هذا فيه تأمل من جهة المعنىٰ وليس ثم ما يقطع به في هذا الباب؛ لكن ذكر بعض أهل العلم من جهة الحكمة أو الدلالة اللطيفة أن الخائف حمله خوفه علىٰ إصلاح باطنه وعلىٰ إصلاح ظاهره. علىٰ إصلاح باطنه خوفا من الله جل وعلا المطلع علىٰ القلوب، وعلىٰ اصطلاح ظاهره خوفًا من الله جل وعلا المحاسب للجوارح، فجعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جزاءه نعيمًا في جنتين لظاهره وباطنه.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧ ﴾ استدل بهذا علىٰ أن الجن يدخلون الجنة، وهو استدلال في محله، والجن مكلفون فيدخلون في عموم الآيات التي فيها وعد المكلف إن أطاع ربه جل وعلا بأن يدخل الجنة، وقال بعض العلماء أن الجن في الجنة يراهم الإنس ولا يرون الإنس بخلاف ما في الدنيا، وهذه تحتاج إلىٰ

بحث في ثبوتها.

قال سبحانه: ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ ﴾ ومعنىٰ الفنن وهو الغصن المورق المثمر ذو الخير الكثير والأقوال فيه متقاربة، فالعرب تقول للشجرة عظيمة الخير أنها ذات أفنان، والفنن الذي فيه الندىٰ وفيه الطراوة والإثمار والإيراق والظل والخير والإعطاء، فهذا متقارب.

فإذن ذواتا أفنان يعني أن الجنتين فيهما خير كثير والجنة كما سبق أن أوضحنا لكم هي المكان الذي كثرت أشجاره فالتفت وسترت أصحابها سترت أصحاب الجنة سترت الداخل فيها، فهي ذواتا أفنان يعنىٰ أن شجرها في فننه وأغصانه وفروعه ليسا مما يشتبك ويكثر من دون نداوة وخير وثمر إلىٰ آخره. فلهذا يكون ما بعدها كأنه تفسير للخير الكثير الذي في الأشجار وفي الفنن حيث قال: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ ﴾ إلىٰ آخره.

﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ ﴾ العينان في الجنة جريانها في هٰذه الآية والمراد به جريان الماء، وأما الخمر والعسل وأشباه ذلك فتلك أنهار قال جل وعلا في سورة القتال: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ ﴾[محمد:١٥] فهذه أنهار مختلفة، والنهر في شقه للمكان وفي استطالته يختلف عن العين.

فإذن التفسير الذي ذُكر من أن العين يعنىٰ أدخل الآية آية القتال هنا هذا ليس بجيد؛ بل النهر شيء والعين شيء آخر، فالعين هنا قال: ﴿تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ ﴾ وفي الآية التي بعدها فيهما عينان نضاختان، والنضخ والجريان صفة للعين، وأما الأنهار فهذه تأتي من تحت العرش كما يأتي بيانه إن شاء الله تعالىٰ.

قال: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ ﴾، وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ ﴾، ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ ﴾ هذه فاكهة تعم جميع أنواع ما يتفكه به، والعرب تقسم الطعام إلىٰ قسمين: إلىٰ طعام يتغذىٰ به، وإلىٰ طعام يُتفكه به .

والتفكه به يعنىٰ أنه ليس بأساسي بل هو لأجل تمام اللذة وتمام التنعم فالله جل وعلا ذكر أن من تمام نعيم هؤلاء الذين خافوا الله حل وعلا وخافوا مقامه وجعل مثواهم جنته أنهم لهم من كل فاكهة زوجان؛ يعني من كل نوع من الفاكهة زوجان يعنىٰ نوعين هذا له شأن وهذا له شأن.

وهذه الأشياء مثل ما مر معك في كلام ابن عباس أنه قال في ذكر ما جاء في الجنة أنه قال: ما في الجنة

من دنياكم إلا الأسماء. هذا علىٰ حقيقته في أن الاشتراك اللفظي ما بين ما يوجد في الجنة وما يوجد في دنيانا إنما هو اشتراك في أصل المعنىٰ لتقريبه، وإلا فإن الحقيقة مختلفة تمامًا، ولهذا قال ليس في الجنة من دنياكم إلا الأسماء؛ يعني أن الأسماء مشتركة والأسماء تحوي المعاني. والمعاني أيضًا مشتركة لكن الحقائق أو كمال المعاني مختلف تمام الاختلاف، فالجنة فيها أنهار لكن أنهار ليست كأنهار الدنيا وإن كان اسم النهر يصدق عليها، وكذلك فيها أشجار لكن ليست كأشجار الدنيا وإن كان اسم الشجرة يصدق عليها، وكذلك فيها كذا وكذا مما أعد الله فيها من النعيم؛ لكن ما في الدنيا لا يقرب من ذلك أبدًا.

فلهذا ضل بعض المفسرين وذلك تبع للفلاسفة وتبع لبعض مناحي الضلال إذ قالوا: إن نعيم الجنة إنما هو تمثيل للنعيم وإلا فإن حقائق هذه الأشياء ليست موجودة.

قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ما في الجنة من دنياكم إلا الأسماء؛ يعني به الاشتراك اللفظي مع أصل المعنىٰ ولا يعنىٰ به أن الأسماء مشتركة والمعاني مختلفة، وإنما النهر هو النهر والغرف هي الغرف والشجر هو الشجر والثمر هو الثمر والفاكهة هي الفاكهة يعني في أصل المعنىٰ معروفة فالألفاظ في اللغة والأسماء مشتملة علىٰ معاني وهذه المعاني لا تشترك فيها حقائق الأشياء يعني أن الحقيقة مختلفة وهذا يظهر لك في أشياء من الدنيا فيسمىٰ هذا عنب وذاك عنب مع اختلاف ما بينها في الوصف ويسمىٰ هذا تمر أو رطب وهذا رطب مع اختلاف ما بينهما في الوصف، وكذلك هذا حب وذلك حب مع اختلاف ما بينهما في الوصف فإذا ربنا جل وعلا جعل في الدنيا مثالًا لاختلاف الحقائق مع اتحاد الأسماء وما في الغيب مما سمىٰ الله جل وعلا وأخبر عنه فإن الأسماء مشتركة والمعاني أيضًا مشتركة؛ لكن تمام المعنىٰ وحقيقة المعنىٰ وحقيقة الشيء هذه تختلف اختلافًا كبيرًا، فيبين لك قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن الدنيا فيها الاختلاف مع الاتحاد في ا لأسماء، وكذلك ما في الجنة الاختلاف بينه وبين ما في الدنيا من النعيم واللذات، وما خلق الله جل وعلا من اختلاف عظيم جدًّا.

لهذا نقول: إن معتقد أكثر المنتسبين إلىٰ القبلة؛ بل جل المنتسبين إلىٰ القبلة هو ما ذكره ابن عباس هنا وعلىٰ هذا المعنىٰ الذي ذكرت لكن هناك طوائف فسرت ذلك بالتمثيل، وأن المراد من هذه الأشياء إنما هو تنشيط الإنسان، تنشيط المكلف للعمل؛ لأن هذه عنده هي أعظم اللذات وهذا من الباطل لأنه يفضي إلىٰ إلغاء دلالات الكتاب والسنة، وإلىٰ أن كل ما فيها إنما هو للتخييل وللوهم، وهؤلاء مردود عليهم في ضمن الرد علىٰ أهل الوهم والتخييل الذين يزعمون أن كل ما ذكر الله جل وعلا من الغيب إنما

هو لأجل أن يحدث تخييل عند المكلفين، فينشط في العمل وهذا من أبطل الباطل؛ لأن الله سبحانه وعد ووعده حق.

ثم إن من القواعد المهمة في الشريعة في مقام الاستدلال وفي إثبات الأشياء أن كثرة الأدلة في باب تفضي إلىٰ القطع بدلالته علىٰ ظاهره، وهذا يحتاج إلىٰ بيان وهو أن ما ذكر الله جل وعلا في القرآن من وصف الجنة ليس في آية واحدة أو وصف النار وعذابها ليس في آية أو في سورة أو في عشر أو في عشرين؛ بل أكثر القرآن في ذكر الغيب ونعيم أهل الجنة ونعيم أهل النار، وما يحصل في عرصات القيامة، وكثرة الأدلة وتنوع هذه الأدلة يعطي أن الدلالة علىٰ وجود هذه الأشياء علىٰ ظاهرها أن الدلالة قطعية؛ لأن كثرة الأدلة تقلل الاحتمال، ولهذا يعتني أهل السنة والجماعة بخاصة في الباب الواحد بكثرة إيراد الأدلة؛ فيذكرون في المسألة يعني من العقائد يذكرون دليلًا ودليلين وخمسة وعشرة، كل ما في الباب يذكرونه مع أن العقيدة تثبت بدليل واحد لأجل أن الخبر الحق جاء من الله جل وعلا؛ لكن كثرة إيراد الأدلة عندهم يقطع مورد الاحتمال الذي يحتج به الضالون، أو احتمال التأويل الذي نحىٰ إليه طوائف، وهذه مهمة في الرد علىٰ كل مخالف للحق في أي مسألة، كثرة إيراد الأدلة من الكتاب والسنة تضيق عليه باب الاحتمال فإذا أورد دليلًا واحدًا صاحب الحق قد يتعرض له المخالف بالتأويل أو بالاحتمال أو بأن دلالته كذا؛ لكن إذا كانت الأدلة كثيرة وهذا من الكتاب ومن السنة؛ فإن احتمالية قوة المعارض في التأويل أو في عدم التسليم فإن احتمال ذلك يضعف جدًّا .

الدرس السابع

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ ﴾.

يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ ﴾ يَعْنِي: أَهْلَ الْجَنَّةِ. وَالْمُرَادُ بِالِاتِّكَاءِ هَاهُنَا: الِاضْطِجَاعُ. وَيُقَالُ: الْجُلُوسُ عَلَىٰ صِفَةِ التَّرَبُّعِ. ﴿عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ ﴾ وَهُوَ: مَا غَلُظَ مِنَ الدِّيبَاجِ. قَالَهُ عِكْرِمَةُ، وَالضَّحَّاكُ وقَتَادَةُ.

وَقَالَ أَبُو عِمْرَان الجَوْنِي: هُوَ الدِّيبَاجُ المغرّي بِالذَّهَبِ. فَنَبَّهَ عَلَىٰ شَرَفِ الظِّهَارَةِ بِشَرَفِ الْبِطَانَةِ. وَهَذَا مِنَ التَّنْبِيهِ بِالْأَدْنَىٰ عَلَىٰ الْأَعْلَىٰ.

قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ، عَنْ هُبَيْرة بْنِ يَرِيم، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: هَذِهِ الْبَطَائِنُ فَكَيْفَ لَوْ رَأَيْتُمُ الظَّوَاهِرَ؟

وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ، وظواهرها من نور.

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ -أَوْ شَرِيكٌ-: بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَظَوَاهِرُهَا مِنْ نُورٍ جَامِدٍ.

وَقَالَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ: بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ، وَظَوَاهِرُهَا مِنَ الرَّحْمَةِ.

وَقَالَ ابْنُ شَوْذَب، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ الشَّامِيِّ: ذَكَرَ اللهُ الْبَطَائِنَ وَلَمْ يَذْكُرِ الظَّوَاهِرَ، وَعَلَىٰ الظَّوَاهِرِ الْمَحَابِسُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَحْتَ الْمَحَابِسِ إِلَّا اللهُ. ذَكَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ الْإِمَامُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴿٥٤﴾ ﴾ أَيْ: ثَمَرُهَا قَرِيبٌ إِلَيْهِمْ، مَتَىٰ شَاءُوا تَنَاوَلُوهُ عَلَىٰ أَيِّ صِفَةٍ كَانُوا، كَمَا قَالَ: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الْحَاقَّةِ]، وَقَالَ: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ﴿١٤﴾ ﴾ [الْإِنْسَانِ] أَيْ: لَا تُمْنَعُ مِمَّنْ تَنَاوَلَهَا، بَلْ تَنْحَطُّ إِلَيْهِ مِنْ أَغْصَانِهَا، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ ﴾.

وَلَمَّا ذَكَرَ الْفُرُشَ وَعَظَمَتَهَا قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿فِيهِنَّ ﴾ أَيْ: فِي الْفُرُشِ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ ﴾ أَيْ غَضِيضَاتٌ عَنْ غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ، فَلَا يَرَيْنَ شَيْئًا أَحْسَنَ فِي الْجَنَّةِ مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَتَادَةُ، وَعَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ، وَابْنُ زَيْدٍ.

وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ الْوَاحِدَةَ مِنْهُنَّ تَقُولُ لِبَعْلِهَا: وَاللهِ مَا أَرَىٰ فِي الْجَنَّةِ شَيْئًا أَحْسَنَ منك، ولا في الجنة شيء أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْكَ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَكَ لِي وَجَعَلَنِي لَكَ.

﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٥٦﴾ ﴾ أَيْ: بَلْ هُنَّ أَبْكَارٌ عُرُبٌ أَتْرَابٌ، لَمْ يَطَأْهُنَّ أَحَدٌ قَبْلَ أَزْوَاجِهِنَّ مِنَ

الْإِنْسِ وَالْجِنِّ. وَهَذِهِ أَيْضًا مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَىٰ دُخُولِ مُؤْمِنِي الْجِنِّ الْجَنَّةَ.

قَالَ أَرْطَاةُ بْنُ الْمُنْذِرِ: سُئِلَ ضَمْرَةُ بْنُ حَبِيبٍ: هَلْ يَدْخُلُ الْجِنُّ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَيَنْكِحُونَ، لِلْجِنِّ جِنِّيَّاتٌ، وَلِلْإِنْسِ إِنْسِيَّاتٌ. وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾.

ثُمَّ قَالَ يَنْعَتُهُنَّ لِلْخُطَّابِ: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ، وَالْحَسَنُ، وَالسُّدِّيُّ، وَابْنُ زَيْدٍ، وَغَيْرُهُمْ: فِي صَفَاءِ الْيَاقُوتِ وَبَيَاضِ الْمَرْجَانِ، فَجَعَلُوا الْمَرْجَانَ هَاهُنَا اللُّؤْلُؤَ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَاتِمٍ، حَدَّثَنَا عُبيدة بْنُ حُمَيْد، عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ الْأَوْدِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمَرْأَةَ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيُرَىٰ بَيَاضُ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ سَبْعِينَ حُلَّةً مِنَ الْحَرِيرِ، حَتَّىٰ يُرَىٰ مُخُّهَا، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾، فَأَمَّا الْيَاقُوتُ فَإِنَّهُ حَجَرٌ لَوْ أَدْخَلْتَ فِيهِ سِلْكًا ثُمَّ اسْتَصْفَيْتَهُ لَرَأَيْتَهُ مِنْ وَرَائِهِ».

وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ عُبَيْدَة بْنِ حُمَيْدٍ وَأَبِي الْأَحْوَصِ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ، بِهِ. ورواه موقوفا، ثم قال: وهو أصح.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَفَّانُ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، أَخْبَرَنَا يُونُسُ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِين، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ زَوْجَتَانِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، عَلَىٰ كُلِّ وَاحِدَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً، يُرَىٰ مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ الثِّيَابِ».

تَفَرَّدَ بِهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عُلَيَّة، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ: إِمَّا تَفَاخَرُوا وَإِمَّا تَذَكَّرُوا، الرِّجَالُ أَكْثَرُ فِي الْجَنَّةِ أَمِ النِّسَاءُ؟ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَوَ لَمْ يَقُلْ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَىٰ صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَىٰ أَضْوَأِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ، يُرَىٰ مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ، وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَعْزَبُ».

وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، مِنْ حَدِيثِ هَمَّام بْنِ مُنَبِّه وَأَبِي زُرْعَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَبُو النَّضْرِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ طَلْحَةَ، عَنْ حُمَيْدٍ عَنْ أَنَسٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ -أَوْ مَوْضِعُ قِيدِهِ- يَعْنِي: سَوْطَهُ- مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوِ اطَّلَعَتِ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَىٰ الْأَرْضِ

لَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَطَابَ مَا بَيْنَهُمَا، ولنَصِيفها عَلَىٰ رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا».

وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ بِنَحْوِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ أَيْ: مَا لِمَنْ أَحْسَنَ فِي الدُّنْيَا الْعَمَلَ إِلَّا الْإِحْسَانُ إِلَيْهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ. كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يُونُس:٢٦].

وَقَالَ الْبَغَوِيُّ: أَخْبَرَنَا أَبُو سَعِيدٍ الشَّرِيحِي، حَدَّثَنَا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني ابن فَنجُوَيه، حدثنا ابْنُ شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ بَهْرَام، حَدَّثَنَا الْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ الْمُكْتَب، حَدَّثَنَا بِشْر بْنُ الْحُسَيْنِ، عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ عَدِيّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾، قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «يَقُولُ هَلْ جَزَاءُ مَا أَنْعَمْتُ عَلَيْهِ بِالتَّوْحِيدِ إِلَّا الْجَنَّةُ».

وَلَمَّا كَانَ فِي الَّذِي ذُكِرَ نِعَمٌ عَظِيمَةٌ لَا يُقَاوِمُهَا عَمَلٌ، بَلْ مُجَرَّدُ تَفَضُّلٍ وَامْتِنَانٍ، قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾.

وَمِمَّا يَتَعَلَّقُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾، مَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالْبَغَوِيُّ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي النَّضْرِ هَاشِمِ بْنِ الْقَاسِمِ، عَنْ أَبَىٰ عَقِيلٍ الثَّقَفِيِّ، عَنْ أَبِي فَرْوَةَ يَزِيدَ بن سِنان الرّهاوي، عن بُكَيْر ابن فَيْرُوزَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ».

ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ أَبِي النَّضْرِ.

وَرَوَىٰ الْبَغَوِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ حُجْر، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرٍ، عن محمد بن أبي حَرْمَلَة -مَوْلَىٰ حُوَيْطِبِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّىٰ- عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَار، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ؛ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُصُّ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾. فَقُلْتُ الثَّانِيَةَ: وَإِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾. فَقُلْتُ الثَّالِثَةَ: وَإِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: «وَإِنْ، رَغِمَ أَنْفُ أَبِي الدَّرْدَاءِ».

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه إلىٰ يوم الدين.

أما بعد؛ فهذه الآيات تتمة لما سبق الكلام عليه من ثواب أهل الخوف من الله جل وعلا حيث قال سبحانه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ ومن صفة هاتين الجنتين، ومن صفة أهلهما قال جل وعلا: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ يعنىٰ أن حالتهم من النعيم المقيم ومن الراحة ومن عدم التكلف أنهم في اتكاء علىٰ فرش هذا وصفها.

والاتكاء أصله في اللغة الاعتماد علىٰ شيء فيقال: اتكأ علىٰ العصا، اتكأ علىٰ فراش، اتكأ علىٰ مخدة، اتكأ علىٰ كذا فهي تأتي بالإضافة إلىٰ شيء يعني أنه ينسب الاتكاء أنه علىٰ شيء ما.

وأما إذا أطلق الاتكاء قال اتكأ كان جالسًا فاتكأ كان متكئًا فجلس أو هنا ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ﴾ والفراش يكون تحت، فهذا الاتكاء هل هو اتكاء مطلق أو علىٰ إحدىٰ الجهتين هذا ذكر لك ابن كثير إشارة رَحِمَهُ ٱللَّهُ لبيان هذا الخلاف، وهذا أصله مبحث لغوي، والصواب فيه أن الاتكاء يكون علىٰ إحدىٰ الجهتين. يعنىٰ يتكئ علىٰ جنبه الأيسر. أو يتكئ علىٰ جنبه الأيمن؛ يعني علىٰ جهته هذه أو علىٰ جهته هذه.

ومن أهل العلم من أدخل صفة التربع في الاتكاء وهذه ذكرها ابن كثير هنا بقوله: (وَيُقَالُ: الْجُلُوسُ عَلَىٰ صِفَةِ التَّرَبُّعِ.) يعني يقال: إن الاتكاء جلوس علىٰ صفة التربع، وهذا التمريض من ابن كثير بقوله: (وَيُقَالُ) في محله؛ لأن هذه الصفة ليست ظاهرة في كونها اتكاءً إذا أُطلق، وإنما قد يقال: جلس معتمدًا جلس أو قعد متكئًا علىٰ اليتيه أو متكئًا علىٰ جنبه أو متكئًا علىٰ يده، ونحو ذلك فلما كان أصل الاتكاء الاعتماد أدخلوا صفة التربع فيه لأنه نوع اعتماد؛ لكن ليس معنىٰ كون الاتكاء اعتمادًا أن يكون كل ما فيه اعتماد يقال له اتكاء ليس كذلك ولهذا كلام ابن كثير هنا في محله فلا يدخل علىٰ الصحيح صفة التربع في الاتكاء، وإن قاله بعض أهل اللغة إلا إذا قيد بشيء، أما إذا أطلق فإن مراد العرب الاتكاء علىٰ إحدىٰ الجهتين.

قال جل وعلا مبينًا حالهم: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ﴾ وفرش جمع فراش، وهو فعال بمعنىٰ مفعول يعنىٰ مفروش، ونكّر هنا فرش فلم يضفها وإنما قطعها عن الإضافة ولم يُعرفها لفائدة في البلاغة وهىٰ إطلاق المعنىٰ؛ لأن تنكير اللفظ يفيد إطلاق المعنىٰ في أصول الفقه، من أوجه التعبير عن المطلق

أن يكون نكرة في سياق الإثبات، ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾[المائدة:٨٩] هذا مطلق؛ لأن تنكير اللفظ يفيد إطلاق المعنىٰ في الإثبات، وأيضًا التنكير يُفيد لما أفاد الإطلاق فإنه يفيد السعة في تصور عظمة هذا المطلق؛ لأنه كأنه قال: لك أن تتصور أو تتوهم كل ما في هذه الفرش من الصفات التي وصف باطنها بقوله: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾؛ والبطائن جمع بطانة، والعرب تقول فيما يلبس أو يجلس عليه له بطانة وظِهارة والبطانة ما بطن والظهارة ما ظهر، مثل الشعار والدثار فالشعار ما بطن والدثار ما ظهر.

قال: ﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ إستبرق كلمة عربية بالتعريب وإلا فأصلها فارسي، إستبره؛ والعرب عربتها واستخدمتها في كلامها؛ فكلمة إستبرق في أصلها ليست عربية، ما هو الإستبرق ؟ الإستبرق حرير غليظ حرير معه ديباج غليظ، ولهذا قال لك في تفسيرها هنا قال: في الإستبرق (وَهُوَ: مَا غَلُظَ مِنَ الدِّيبَاجِ. قَالَهُ عِكْرِمَةُ، وَالضَّحَّاكُ وقَتَادَةُ) لماذا؟ لأن هذا هكذا هو في اللغة الأصلية يعني في لغة أهل فارس.

وهنا بحث مهم وهو ما بحثه الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ وابن جرير الطبري وجماعة من المتقدمين ومن المتأخرين، وهو أن القرآن أنزل بلسان عربي مبين، وهذا يعني أن كلمات هذا القرآن ليس فيها شيء غير اللسان العربي، فهل يقال: إن ثم كلمة في القرآن أصلها ليس بعربي واستعملت علىٰ ذلك أم يقال كل ما في القرآن هو عربي المنشأ عربي الأصل وعربي الاستعمال، والعلماء لهم في ذلك ثلاثة أقوال:

- منهم من يمنع مطلقًا يعنىٰ يقول ليس في القرآن إلا الكلام العربي لفظًا واشتقاقا واستعمالًا.
- ومنهم من يقول يوجد في القرآن كلمات غير العربية، علىٰ ما هي في لغة أهلها.
- والقول الثالث وهو الصحيح المنصور عند أهل التحقيق أن العرب داخلوا الأمم وأخذوا من كلمات غيرهم؛ لكنهم جعلوها علىٰ نسق لغتهم، فصارت من لغاتهم يعني من لغات العرب بالاستعمال بالتعريب وأحيانًا بالوزن والاشتقاق، فهي وإن كان أصلها غير عربي فصارت عربية بالاستعمال، واللغة بل اللغات تتداخل يدخل بعضها في بعض ويستفيد بعض الأمم من بعض في اللغات؛ لأن الألفاظ موضوعة للمعاني فيكون لفظ وضع لمعنىٰ في لغة وليس هذا المعنىٰ موجودًا عند الفئة الأخرىٰ.

مثل مثلًا ما غلظ من الديباج العرب ليسوا من أهل التنعم إنما أهل بادية عندهم الصوف وعندهم الوبر وعندهم أشياء مما يتعاطونه قد يكون القطن ونحو ذلك، أما القطائف والحرير ونحو ذلك فإنما يجلب إليهم، فكيف إذا كان علىٰ صفة خاصة فالكلمات من حيث هي توجد في لغات الناس وتنقل

بحسب ما هو موجود ، ثم العرب يعربونها بمعنىٰ يجعلونها علىٰ وفق أوزانهم أو علىٰ ما يصلح للاستعمال والإعراب في لغتهم، فتصير عربية لما عُربوها واستعملوها وإن كان أصلها ليس بعربي.

فإذًا القرآن نزل بلسان عربي مبين كما أخبر الله ﷻ، وهذا اللسان العربي هو الذي كانت العرب تتكلم به، كانت تتكلم بألفاظ وهذه الألفاظ فيها معاني فما كانت تتكلم به العرب وهم حجة فيما يستعملون فالقرآن نزل به.

فإذًا هذا القول الثالث هو القول الصحيح المنصور، وهذا لا ينافي؛ بل يجتمع مع كون القرآن نزل بلسان عربي مبين.

هنا قال جل وعلا: ﴿ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ البطائن وهي الداخلة يتكئ الإنسان علىٰ فرش بطائنها مما غلظ من الديباج والقطائف والحرير ونحو ذلك، فما فائدة ذكر البطائن هنا أن البطانة ما يباشرها الإنسان، إنما هو يتكئ علىٰ ما ظهر فذكر الله جل وعلا البطائن ﴿ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ فلماذا ؟

ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ نبه علىٰ هذا فقال: (فَنَبَّهَ عَلَىٰ شَرَفِ الظِّهَارَةِ بِشَرَفِ الْبِطَانَةِ. وَهَذَا مِنَ التَّنْبِيهِ بِالْأَدْنَىٰ عَلَىٰ الْأَعْلَىٰ) هذا صحيح وظاهر من جهة البلاغة أيضًا؛ لأن الذي يباشره من أنعم الله جل وعلا عليه بالجنة واتكأ إنما يباشر الظهارة. أما البطائن فهو لا يباشرها، فلماذا ذكر البطانة يعنىٰ كأنكم من نعيمها لا تدركون ولا تعرفون إلا البطانة التي لا تباشرونها بالاتكاء والجلوس. أما الظهارة فأنتم لا تعرفونها.

فالبطانة هذه ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ الإستبرق هذا مما لا يستعمله إلا الملوك في زمانهم، فإذا كان الباطن مما لا يستعمله إلا أغنىٰ الناس والملوك في ذلك الزمان، فالظهارة شيء لا يوصف فيبقىٰ علىٰ إطلاقه ويبقىٰ علىٰ تشوق النفس له ، ويبقىٰ علىٰ تعلق النفس به. وهذا كثير في القرآن يكون هناك تنبيه بالأدنىٰ علىٰ الأعلىٰ سواء في النعيم أو في غيره ليبقىٰ ما لم يذكر علىٰ سعته وعلىٰ إطلاقه وتعلق النفس به وهذا له صلة بالتأثيرات النفسية والتشويق والبلاغة.

لهذا ساق عن عبد الله بن مسعود قال: (هَذِهِ الْبَطَائِنُ فَكَيْفَ لَوْ رَأَيْتُمُ الظَّوَاهِرَ؟) قال: (بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ، وظواهرها من نور) يعني أن الظواهر لا توصف لا يمكن أن توصف.

قال جل وعلا بعدها: ﴿ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ جنىٰ الجنتين يعني اللتين أعدهما الله جل وعلا لمن خاف مقام ربه.

وقد يقال هناك مناسبة علىٰ قوله: ﴿ بَطَآئِنُهَا ﴾ نذكرها لكم هناك مناسبة ولطيفة وهي أن الله جل وعلا أعد هاتين الجنتين لمن خاف مقام ربه، والخوف باطن لأنه من عمل القلب، فنبه بنعيم خاص وهو أنهم لأنهم يتكئون علىٰ فرش بطائنها من إستبرق، مناسبة لعباده الخوف الباطنة التي قامت بها، وهذه العبادة لها صلة بالظاهر؛ لأن الخوف من الله جل وعلا يُثمر الثمرات العظيمة في ظاهر حياة العبد في التزامه بالواجب وانتهائه عما حرم الله جل وعلا، لهذا جمع في الآية ما بين ذكر البطائن أولًا لمناسبتها للخوف وذكر الظاهر بقوله ﴿ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ ﴾؛ لأن الخوف في قلوبهم، خوف الباطن أثمر فقال سبحانه: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ الجنىٰ هو ما يجنىٰ يعنىٰ يجمع من الثمار أو غيرها، ودان من الدنو وهو القرب حتىٰ أن أحدهم أسأل الله الكريم من فضله لا يتكلف إذا اشتهىٰ شيئًا من الطير أو من الفاكهة أو من الثمر لا يتكلف أن يتحرك، وإنما يدنو إليه فيأخذ ما يشتهىٰ تناوله.

قال جل وعلا: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ ﴾ هذه الآية تكررت في السورة كما ذكرنا، ولكن ذكرها هنا في سياق نعيم الجنة فيه التنبيه علىٰ أمر عظيم؛ وهو أن كل هذا النعيم إذا حصل للعبد فهو من نعمة الله جل وعلا، فهو من آلائه ومن نعمه ومن فضله ومن إحسانه وهذا يدل علىٰ أن ما فعله العبد في هذه الدنيا من التوحيد ومن الطاعات واتباع الرسول عليه الصلاة والسلام واستحق به الجنة إنما هو سبب وليس من جهة المقابلة؛ يعني أن هذا بهذا وإنما هو سبب من الأسباب.

وأجر له علىٰ عمله فهو إذا نعمة؛ لأن عمله مهما بلغ فإنه لا يحصل عليه يعنىٰ من جهة الجزاء والأجر المتعارف عليه عند الناس لا يحصل علىٰ هذا الثواب العظيم عمل مائة سنة ، عمل ستين سنة فهو يحصل علىٰ هذا النعيم الذي لا يوصف وأعلاه لذة النظر إلىٰ وجه الله جل وعلا أبد الآبدين بما لا ينقطع، فإذا ما ثم إلا أنه نعمة من نعم الله وفضل من فضله ومن آلائه جل وعلا، وهذا يدل علىٰ أن العبد المؤمن إذا علم أن الجنة التي وعد الله جل وعلا هذه صفتها وهذا شأنها وأنها نعمة وليس العبد يستحقها استحقاق مقابلة؛ فإنه سيبعثه ذلك علىٰ محبة خاصة، وعلىٰ تلذذ بالطاعة وعلىٰ انكسار لله جل وعلا بما لا يكون مع غير هذا الاعتقاد.

لهذا تنتبه إلىٰ نعمة مسداه من الله جل وعلا عليه، ثم الثواب عليها نعمة فالهداية أصلًا نعمة أنزال القرآن نعمة مثل ما ذكر جل وعلا في أول السورة أنواع الهداية نعمة، قبول العمل وقبول الصالحات هذه

نعمة وتفضل من الله جل وعلا، ثم الإثابة علىٰ ذلك نعمة من نعم الله جل وعلا، فأين يكون إذًا العبد لا مفر من الله إلا إليه ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ ﴾[التكوير].

وهذا يجعل العبد المؤمن الصالح لا يتكبر علىٰ ربه جل وعلا ولا علىٰ دينه ولا علىٰ سنة نبيه عليه الصلاة والسلام، لا يكون ذا عجب بعمله، وهو أشد ما يصيب الخاصة، كذلك لا يحتقر الآخرين ممن لم يبلغوا عمله؛ لأن أصل العمل والقبول والثواب نعمة من نعم الله جل وعلا، فقد يبارك الله ﷻ في عمل فلان القليل جدًّا، ولا يبارك في عمل فلان الكثير؛ لأسباب، وهذا كله يجعل العبد يتواضع مع السعي الحثيث في طاعة الله جل وعلا ومن ذلك المقامات العالية من العلم والتعليم والجهاد في سبيل الله تعالىٰ، لا يكون ذلك إلا مع التواضع عند أهل اليقين. وأهل العلم بالله جل وعلا وأسمائه وصفاته.

قال سبحانه بعدها: ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ ﴾ قاصرات الطرف وصف لنزاهتهن وحسن نظرهن بطرفهن، فهن مقصورات في النظر علىٰ أزواجهن، وقاصرات الطرف هؤلاء من نساء الجنة؛ يعني أنهن من الحور العين أو من نساء الجنة وليسوا من نساء الدنيا؛ لأن الله جل وعلا قال بعدها ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ ﴾ لأنهن من نساء الجنة.

وقوله: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ يعنىٰ إزالة البكارة التي معها خروج الدم. وهذه الآية استدل بها علىٰ دخول مؤمن الجن الجنة وهىٰ ظاهرة في قوله: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ ﴾ فالإنس والجن مكلفون فالتفريق ما بين المكلفين في دخول الجنة هؤلاء يدخلون وهؤلاء لا يدخلون، أو هؤلاء لذتهم كذا وهؤلاء لذتهم كذا، هذا التفريق في الأصل يحتاج إلىٰ دليل علىٰ أن هؤلاء كذا وهؤلاء كذا والنصوص من الكتاب والسنة في التكليف جاءت في تكليف الجن والإنس جميعًا. وكذلك النصوص في الثواب هي للمكلفين من الإنس والجن جميعًا.

ولهذا يقول الله جل وعلا بعدها ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ ﴾ يعنىٰ الإنس والجن جميعًا فمؤمنوا الجن يدخلون الجنة كما هو قول جمهور العلماء، ويستمتعون بما فيها من المتاع مثل ما جاء في الأثر أن الإنس في الجنة يرون الجن، والجن لا يرونهم عكس ما في الدنيا.

قال جل وعلا في وصف النساء: ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ ﴾ وهذا لأجل تمام الحسن في وصفها بالجواهر الكريمة التي تستحسنها العرب لصفائها وندرة وجودها وحسن لونها إلىٰ آخر ذلك.

قال: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ ﴾ هل هنا مع إلا للحصر يعنىٰ كأنه قال إنما جزاء الإحسان الإحسان والله جل وعلا يثيب العبد من جنس عمله يعني في القاعدة العامة والأصل العام فمن عفي عفي عنه. ومن أحسن أحسن إليه ومن رحم رحمه، وهكذا والإحسان المذكور في هذه الآية ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ الله جل وعلا لا يحسن العبد إليه؛ ولكن يحسن عبادته وإحسان العبادة هو المقصود، كما قال سبحانه: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[يونس:٢٦]، حتىٰ الجنة صارت حسنىٰ لأنها جزاء الفعل الحسن، والإحسان تنوعت عبارات العلماء في ضبطه.

والإحسان له مراتب: أدني مراتب الإحسان أن يأتي بالتوحيد الواجب عليه، وأن ينتهي عن الشرك وأن يعبد الله جل وعلا بما شرعه رسول الله ﷺ؛ يعني أصل العبادة يعني جنس العبادة لا في كل مسألة مسألة، فهذا الإحسان من أتي به استحق دار الحسنىٰ واستحق الجنة.

ثم هو مراتب. إلىٰ أن يصل العبد إلىٰ أعلىٰ مراتبه وهىٰ أن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله حل وعلا يرىٰ العبد.

ومن المراتب المشهورة في الإحسان ما جاء في قول الله جل وعلا: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود:٧] يعنىٰ أن يكون العمل خالصًا صوابًا، فالناس فيها مراتب بإخلاص العبادات وكونها علىٰ الصواب، وكذلك في إخلاص أنواع القربات من الفرائض والنوافل من العلم والجهاد والأمر بالمعروف والنهىٰ عن المنكر والدعوة إلىٰ الله جل وعلا، هذه كلها تحتاج إلىٰ إخلاص وإلىٰ متابعة للنبي عليه الصلاة والسلام فيها.

فإذًا الإحسان جزاؤه الإحسان والإحسان لما كان متنوعًا صار أيضًا الإحسان متنوعًا لما كان الإحسان في الأصل مراتب صار أيضًا إحسان الله جل وعلا للعبد الذي قوبل بالإحسان الأول صار مراتب مختلفة لأن الله جل وعلا جعله بالجزاء ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ فكلما كان إحسان جازىٰ الله العبد أو جزىٰ الله العبد إحسانا بمقابلته. وهذا يعطيك السعة في تنوع إحسان الرب جل وعلا يوم القيامة لعبده في الجنة بتنوع إحسان العبد في الدنيا.

وهذا سبب اختلاف المراتب في الجنة، وأن الجنتين اللتين ذكرهما الله جل وعلا تختلف أيضًا درجات أهلها والصفات إلىٰ آخره في تحقق ما ذكر ربنا جل وعلا، ولا شك أنه من الواجب علىٰ كل

أحد أن يسعىٰ إلىٰ إحسان العمل؛ لأن العبرة بصحة العمل وإن قل وحسنه وإن قل لا بكثرته، كما قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: ولا مثقال ذرة من بر مع تقوىٰ ويقين أعظم من أمثال الجبال عبادة من المغترِّين.

والعبد المؤمن إذا كان عمله علىٰ الصواب والإخلاص وإن كان قليلًا وإن كان مثقال ذرة فالله جل وعلا يباركه وينميه للعبد، وأما إذا كان كثيرًا لكن يشوبه والعياذ بالله الرياء أو العجب أو التكبر أو تفضيل النفس عن الغير أو نحو ذلك، فهذا يؤتي العبد من هذه الجهة، وفي قوله في آخرها: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ ﴾ ما في الآية الأولىٰ من أن كل ما في الجنة تفضل ونعمة وكل ذلك من آلاء الرَّحمٰن جل جلاله.

سؤال (): .....

الجواب: الأرقام هذه قصتها طويلة وفيها كتب مؤلفة، وأصل العرب ما تعرف الأرقام العرب ما تعرف الأرقام تعرف الرقم بالعقد واحد اثنين ثلاثة أربعة خمسة بهذا، ثم تعمل كذا يدل علىٰ عشرين ثلاثين، اثنين وثلاثين كلها باليد، ولذلك جاء في الحديث في صفة قبض الأصابع في التشهد قال: (فعقد ثلاث وخمسين) عقد ثلاث وخمسين؛ يعني هذا جاءت هنا ثم أشار أو عقدها ومدَّ الإصبع هذا عقد ثلاث وخمسين فالعرب لا تعرف الأرقام المكتوبة هذه ثم لما توسعت الحضارة الإسلامية خاصة في أواخر القرن الأول وبداية الثاني وكثرت الأموال احتاجوا إلىٰ ضبط الأرقام بالكتابة يعني رقم يرسم مثل الحرف يرسم للدلالة عليه فأيضًا الرقم احتاجوا إليه فسألوا أهل الرياضيات عندهم في ذلك الزمان فذكروا لهم أن أهل الهند يستعملون أرقامًا فطُلب منهم أنهم ينقلون أرقام أهل الهند فكلف أكثر من شخص:

فمنهم من نقلها علىٰ صورة الأرقام المستعملة الآن؛ الأرقام التي الآن واحد اثنين علىٰ ها الشكل الذي تعرفونه عندنا يعني هنا وهي أقرب من حيث الشكل إلىٰ الأرقام الهندية.

ومنهم يعني من الذين سعوا في أجداث الأرقام من نظر نظرة هندسية لها من جهة الزوايا، جعل الرقم يدل علىٰ محتواه بعدد الزوايا فيه، واحد فيه زاوية واحدة يعني الذي كذا (1)، واثنين فيها زاويتين (2)، وثلاث فيها ثلاث زوايا، وأربع فيها أربعة زوايا، ثم خمس فيها خمس زوايا إلىٰ آخره بحسب اجتهادهم في ذلك الزمان؛ لكنه ما شاع استعمال هذه الأرقام التي تسمىٰ الآن إنجليزية ما شاع في ذلك الزمان إلا

في أنحاء من الدول الأندلسية يعني انتقل إلىٰ المغرب في الدولة الأندلسية، وأما الدولة المشرقية يعني دولة بني العباس، ما شاعت فيها ها الأرقام، وإنما شاع فيها الأرقام المعروفة الهندية.

تطاول الزمان ثم قيل طبعًا الغرب وأوربا ما كانت تعرف الأرقام لا هذه ولا هٰذه، يعني كان لهم أرقام يونانية مختلفة في رسمها ويمكن تشوفونها أحيانًا في بعض الساعات ، أرقام مختلفة في يعني شكل الرقم مختلف أخذوا الأرقام العربية في الأندلس هذه هي التي تسمونها الآن إنجليزية أخذوها إلىٰ أوربا وصارت إنجليزية فهي مأخوذة أصلًا من الترجمة من ترجمة رياضة للأرقام الهندية.

هذه لها قصة طويلة المقصود الآن إذا نظرنا للأصل فهي كلها عربية، وإذا نظرت للاستعمال صار العربي عندنا هو الأرقام المعروفة عندنا، فلذلك يقال لا تستعمل غيرها العربي نظرًا إلىٰ الحالة الموجودة إلىٰ ما تعارفه الناس؛ لأن ما كل واحد تقدر تشرح له تقول والله ويفهم إن هذا أصلها عربي وإن أصلها يعني هندي، وحطوها بالشكل هذا قد ما يفهمون هذا الشيء، فلذلك يكون استعمالها له صفة المتشابهة أو استعمال لغة العرب.

مع أنه أنا عندي أن واسع سواء استخدم هذه أو استخدم هذه الأمر واسع وهو موجود الآن في بلاد المغرب استعمال الأرقام التي تسمىٰ أرقام انجليزية موجودة من قديم إلىٰ الآن يستعملونها حتىٰ في كتاباتهم؛ لكن الواحد يدرج علىٰ ما لا ينكر والأرقام هي للدلالة فيها كفاية.

سؤال ():

الجواب: النساء يعني من أهل الجنة، كل امرأة تدخل الجنة فلها زوج من الإنس يعني سواء كانت متزوجه في الدنيا أو ليست متزوجة، فالله جل وعلا يزوجها بإنسي يعني ممن يدخل الجنة، هذا قاله بعض أهل العلم علىٰ الحديث الذي سمعتم في «الصحيحين»: «أول زمرة يدخلون الجنة علىٰ صورة القمر لكل منهم زوجتان» بعضهم قال: من نساء الدنيا لا من نساء الجنة.

وبالمناسبة الحديث الذي سمعتوه الذي هو «أول زمرة يدخلون الجنة علىٰ صورة القمر» تنتبه لهذا اللفظ «علىٰ صورة القمر» يعني علىٰ صفة القمر؛ لأن الصورة في اللغة هي الصفة، الصورة في اللغة تطلق ويراد بها الصفة «علىٰ صورة القمر» يعني علىٰ صفة القمر من الوضاءة والحسن والنور إلىٰ آخره، القمر يعني البدر ليلة التمام؛ يعني أنهم فيهم من النور والوضاءة والسرور ما يشع ويظهر.

سؤال (): أليست الهيئة ؟

الجواب: لا ما هي الهيئة، ليست الهيئة فقط، يعني الصورة يراد بها الصفة، التصوير يعني جعله علىٰ صفة ما صور الله جل وعلا الإنسان يعني جعله علىٰ صفته يعني صفة في خلقه وفي تقليده.. إلخ

سؤال ():.....

الجواب: يعني من حيث العدد ليش ؟ لا ما هو بشرط أنسية ربما أكثر ليش خصصته بإنسية يعني تقول أنه يمكن النساء أكثر، بعض العلماء قال: نساء الجنة أكثر من الرجال، فهذا لا يخالف أن أكثر أهل النار النساء فقوله أكثر أهل النار النساء يعني أن النار النساء فيها أكثر من الرجال؛ لكن هل يفهم من ذلك أن الجنة الرجال فيها أكثر ما يفهم من ذلك، علىٰ كل حال هذه مسكوت عنها يعني ما في دليل نصير إليه حجة، من عمل صالحًا فلنفسه، هذا بعد ما يستحرّ القتل والملحمة يقل الرجال جدًّا حتىٰ يكون لأربعين أمرأة القيم الواحد.

سؤال (): .....

الجواب: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ هم، لكن ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ٧٢﴾ يعني ما يتعدونها؛ لكن قاصرات الطرف؛ يعني أن طرفهن قاصر لا يتعدىٰ أزواجهن إلىٰ غيرهم.

الدرس الثامن

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

هَاتَانِ الْجَنَّتَانِ دُونَ اللَّتَيْنِ قَبْلَهُمَا فِي الْمَرْتَبَةِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْمَنْزِلَةِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾.

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ: «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، فَالْأُولَيَانِ لِلْمُقَرَّبِينَ، والأخريان لأصحاب اليمين».

وَقَالَ أَبُو مُوسَىٰ: جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ لِلْمُقَرَّبِينَ، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ مِنْ دُونِهِمَا فِي الدَّرَجِ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: مِنْ دُونِهِمَا فِي الْفَضْلِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ شَرَفِ الْأُولَيَيْنِ عَلَىٰ الْأُخْرَيَيْنِ وجوه: أحدها: أنه نعت الأولين قَبْلَ هَاتَيْنِ، وَالتَّقْدِيمُ يَدُلُّ عَلَىٰ الِاعْتِنَاءِ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾. وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي شَرَفِ التَّقَدُّمِ وَعُلُوِّهِ عَلَىٰ الثَّانِي.

وَقَالَ هُنَاكَ: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾: وَهِيَ الْأَغْصَانُ أَوِ الْفُنُونُ فِي الْمَلَاذِّ، وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ أَيْ سَوْدَاوَانِ مِنْ شِدَّةِ الرِّيِّ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ قَدِ اسْوَدَّتَا مِنَ الْخُضْرَةِ، مِنْ شِدَّةِ الرِّيِّ مِنَ الْمَاءِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشَجُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ فُضَيْلٍ، حَدَّثَنَا عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾: قَالَ: خَضْرَاوَانِ. ورُوِي عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَىٰ، وَعِكْرِمَةَ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَمُجَاهِدٍ -فِي إِحْدَىٰ الرِّوَايَاتِ- وَعَطَاءٍ، وَعَطِيَّةَ الْعَوْفِي، وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَيَحْيَىٰ بْنِ رَافِعٍ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، نَحْوُ ذَلِكَ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾: مُمْتَلِئَتَانِ مِنَ الْخُضْرَةِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: خَضْرَاوَانِ مِنَ الرِّيِّ نَاعِمَتَانِ. وَلَا شَكَّ فِي نَضَارَةِ الْأَغْصَانِ عَلَىٰ الْأَشْجَارِ الْمُشَبَّكَةِ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ. وَقَالَ هُنَاكَ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾﴾، وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيْ فَيَّاضَتَانِ.

وَالْجَرْيُ أَقْوَىٰ مِنَ النَّضْخِ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾ أَيْ مُمْتَلِئَتَانِ لَا تَنْقَطِعَانِ.

وَقَالَ هُنَاكَ: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾، وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأُولَىٰ أَعَمُّ وَأَكْثَرُ فِي الْأَفْرَادِ وَالتَّنْوِيعِ عَلَىٰ فَاكِهَةٍ، وَهِيَ نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ لَا تَعُمُّ؛ وَلِهَذَا فُسِّرَ قَوْلُهُ: ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَىٰ الْعَامِّ، كَمَا قَرَّرَهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ، وَإِنَّمَا أُفْرِدَ النَّخْلُ وَالرُّمَّانُ بِالذِّكْرِ لِشَرَفِهِمَا عَلَىٰ غَيْرِهِمَا.

قَالَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ: حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ، حَدَّثَنَا حُصَيْنُ بْنُ عُمَرَ، حَدَّثَنَا مُخَارِقٌ، عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: جَاءَ أُنَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، أَفِي الْجَنَّةِ فَاكِهَةٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ، فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ». قَالُوا: أَفَيَأْكُلُونَ كَمَا يَأْكُلُونَ فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: «نَعَمْ وَأَضْعَافٌ». قَالُوا: فَيَقْضُونَ الْحَوَائِجَ؟ قَالَ: «لَا وَلَكِنَّهُمْ يَعْرَقُونَ وَيَرْشَحُونَ، فَيُذْهِبُ اللهُ مَا فِي بطونهم من أذىٰ».

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا الفَضْل بْنُ دُكَيْن، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ حَمَّادٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَخْلُ الْجَنَّةِ سَعَفُهَا كُسْوَةٌ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، مِنْهَا مُقَطَّعَاتهم، وَمِنْهَا حُلَلهم، وكَرَبُهَا ذَهَبٌ أَحْمَرُ، وَجُذُوعُهَا زُمُرُّدٌ أَخْضَرُ، وَثَمَرُهَا أَحْلَىٰ مِنَ الْعَسَلِ، وَأَلْيَنُ مِنَ الزُّبْدِ، وَلَيْسَ لَهُ عَجَمٌ.

وَحَدَّثَنَا أَبِي: حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ -هُوَ ابْنُ سَلَمَةَ- عَنْ أَبِي هَارُونَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «نَظَرْتُ إِلَىٰ الْجَنَّةِ فَإِذَا الرُّمَّانَةُ مِنْ رُمَّانِهَا كَمِثْلِ الْبَعِيرِ الْمُقْتَبِ».

ثُمَّ قَالَ: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ قِيلَ: الْمُرَادُ خَيْرَاتٌ كَثِيرَةٌ حَسَنَةٌ فِي الْجَنَّةِ، قَالَهُ قَتَادَةُ. وَقِيلَ: خَيْرَاتٌ جَمْعُ خَيِّرَةٍ، وَهِيَ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ الْحَسَنَةُ الخُلُق الْحَسَنَةُ الْوَجْهِ، قَالَهُ الْجُمْهُورُ. وَرُوِيَ مَرْفُوعًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ الَّذِي سَنُورِدُهُ فِي سُورَةِ «الْوَاقِعَةِ»: أَنَّ الْحُورَ الْعِينَ يُغَنِّينَ: نَحْنُ الْخَيْرَاتُ الْحِسَانُ، خُلِقْنَا لِأَزْوَاجٍ كِرَامٍ. وَلِهَذَا قَرَأَ بَعْضُهُمْ: «فِيهِنَّ خَيِّرات»، بِالتَّشْدِيدِ ﴿حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾، وَهُنَاكَ قَالَ: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ الطَّرْفِ﴾، وَلَا شَكَّ أَنَّ الَّتِي قَدْ قَصَرَت طَرْفَهَا بِنَفْسِهَا أَفْضَلُ مِمَّنْ قُصرت، وَإِنْ كَانَ الْجَمِيعُ مُخَدَّرَاتٍ.

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَبْدِ اللهِ الْأَوْدِيُّ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ جَابِرٍ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي بزَّة، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: إِنَّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ خيرة، وَلِكُلِّ خيرة خَيْمَةٌ، وَلِكُلِّ خَيْمَةٍ أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ، يَدْخُلُ عَلَيْهَا كُلَّ يَوْمٍ تُحْفَةٌ وَكَرَامَةٌ وَهَدِيَّةٌ لَمْ تَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ، لَا مَرّاحات وَلَا طَمّاحات، وَلَا بَخِرَاتٍ وَلَا ذَفِرَاتٍ، حُورٌ عِينٌ، كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فِي ٱلْخِيَامِ ۝٧٢﴾، قَالَ الْبُخَارِيُّ:

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّىٰ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ، حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ، عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ أَبِيهِ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ، عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلًا فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أهلٌ مَا يَرون الْآخَرِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ».

وَرَوَاهُ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي عِمْرَانَ، بِهِ. وَقَالَ: «ثَلَاثُونَ مِيلًا». وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي عِمْرَانَ، بِهِ. وَلَفْظُهُ: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا ستون ميلا لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلٌ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ، فَلَا يَرَىٰ بَعْضُهُمْ بَعْضًا».

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرزَّاق، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ قَتَادَةَ، أَخْبَرَنِي خُلَيْد العَصَري، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: الْخَيْمَةُ لُؤْلُؤَةٌ وَاحِدَةٌ، فِيهَا سَبْعُونَ بَابًا مِنْ دُرٍّ.

وَحَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا عِيسَىٰ بْنُ أَبِي فَاطِمَةَ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُثَنَّىٰ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ۝٧٢﴾، وَقَالَ: فِي خِيَامِ اللُّؤْلُؤِ، وَفِي الجنة خيمة واحدة من لؤلؤة، أربع فَرَاسِخَ فِي أَرْبَعَةِ فَرَاسِخَ، عَلَيْهَا أَرْبَعَةُ آلَافِ مِصْرَاعٍ مِنَ الذَّهَبِ.

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ: أَخْبَرَنَا عَمْرٌو أَنَّ دَرَّاجا أَبَا السَّمح حَدَّثَهُ، عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «أَدْنَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً الَّذِي لَهُ ثَمَانُونَ أَلْفَ خَادِمٍ، وَاثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ زَوْجَةً، وَتُنْصَبُ لَهُ قُبَّةٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ وَيَاقُوتٍ، كَمَا بَيْنَ الْجَابِيَةِ وَصَنْعَاءَ».

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ، بِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٧٤﴾: قَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُهُ سَوَاءٌ، إِلَّا أَنَّهُ زَادَ فِي وَصْفِ الْأَوَائِلِ بِقَوْلِهِ: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ۝٧٦﴾: قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الرَّفْرَفُ:

الْمَحَابِسُ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَغَيْرُهُمَا: هِيَ الْمَحَابِسُ. وَقَالَ الْعَلَاءُ بْنُ بَدْرٍ الرَّفْرَفُ عَلَىٰ السَّرِيرِ، كَهَيْئَةِ الْمَحَابِسِ الْمُتَدَلِّي.

وَقَالَ عَاصِمٌ الْجَحْدَرِيُّ: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ يَعْنِي: الْوَسَائِدَ. وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ.

وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ أَبِي بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ قَالَ: الرَّفْرَفُ: رِيَاضُ الْجَنَّةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَالسُّدِّيُّ: الْعَبْقَرِيُّ: الزَّرَابِيُّ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هِيَ عِتَاقُ الزَّرَابِيِّ، يَعْنِي: جِيَادَهَا.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْعَبْقَرِيُّ: الدِّيبَاجُ.

وَسُئِلَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾ فَقَالَ: هِيَ بُسُطُ أَهْلِ الْجَنَّةِ -لا أبا لكم- فَاطْلُبُوهَا. وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رِوَايَةٌ: أَنَّهَا الْمَرَافِقُ. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: الْعَبْقَرِيُّ: أَحْمَرُ وَأَصْفَرُ وَأَخْضَرُ. وَسُئِلَ الْعَلَاءُ بْنُ زَيْدٍ عَنِ الْعَبْقَرِيِّ، فَقَالَ: الْبُسُطُ أَسْفَلَ مِنْ ذَلِكَ. وَقَالَ أَبُو حَزْرَةَ يَعْقُوبُ بْنُ مُجَاهِدٍ: الْعَبْقَرِيُّ: مِنْ ثِيَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، لَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: الْعَبْقَرِيُّ: الطَّنَافِسُ المخْمَلة، إِلَىٰ الرِّقَّةِ مَا هِيَ. وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: كُلُّ ثَوْبٍ مُوَشىٰ عِنْدَ الْعَرَبِ عَبْقَرِيٌّ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَىٰ أَرْضٍ يُعْمَلُ بِهَا الْوَشْيُ. وَقَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ: كُلُّ شَيْءٍ يَسُرُّ مِنَ الرِّجَالِ وَغَيْرِ ذَلِكَ يُسَمَّىٰ عِنْدَ الْعَرَبِ عَبْقَرِيًّا. وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ فِي عُمَرَ: «فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرِيَّهُ».

وَعَلَىٰ كُلِّ تَقْدِيرٍ فَصِفَةُ مَرَافِقِ أَهْلِ الْجَنَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ أَرْفَعُ وَأَعْلَىٰ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ قَالَ هُنَاكَ: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾، فَنَعَتَ بَطَائِنَ فُرُشِهِمْ وَسَكَتَ عَنْ ظَهَائِرِهَا، اكْتِفَاءً بِمَا مَدَحَ بِهِ الْبَطَائِنَ بِطَرِيقِ الْأَوْلَىٰ وَالْأَحْرَىٰ. وَتَمَامُ الْخَاتِمَةِ أَنَّهُ قَالَ بَعْدَ الصِّفَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ فَوَصَفَ أَهْلَهَا بِالْإِحْسَانِ وَهُوَ أَعْلَىٰ الْمَرَاتِبِ وَالنِّهَايَاتِ، كَمَا فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ لَمَّا سَأَلَ عَنِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ الْإِيمَانِ. فَهَذِهِ وُجُوهٌ عَدِيدَةٌ فِي تَفْضِيلِ الجنتين الأوليين علىٰ هاتين الأخيريين ، وَنَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ الْوَهَّابَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِ الْأُولَيَيْنِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ أَيْ: هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُجَلَّ فَلَا يُعْصَىٰ، وَأَنْ يُكْرَمَ فَيُعْبَدَ، وَيُشْكَرَ فَلَا

يُكْفَرَ، وَأَنْ يُذْكَرَ فَلَا يُنْسَىٰ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ ذِي الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ دَاوُدَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ ثَابِتِ بْنِ ثَوْبَانَ، عَنْ عُمَيْرِ بْنِ هَانِئٍ، عَنْ أَبِي الْعَذْرَاءِ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَجِدّوا اللهَ يَغْفِرْ لَكُمْ».

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَذِي السُّلْطَانِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَلَا الْجَافِي عَنْهُ».

وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَىٰ: حَدَّثَنَا أَبُو يُوسُفَ الْجِيزِيُّ، حَدَّثَنَا مُؤَمَّلُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا حَمَّادٌ، حَدَّثَنَا حُمَيْدٌ الطَّوِيلُ، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَلِظُّوا بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ».

وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، عَنْ مَحْمُودِ بْنِ غَيْلَانَ، عَنْ مُؤَمَّلِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، بِهِ.

ثُمَّ قَالَ: غَلِطَ الْمُؤَمَّلُ فِيهِ، وَهُوَ غَرِيبٌ وَلَيْسَ بِمَحْفُوظٍ، وَإِنَّمَا يُرْوَىٰ هَذَا عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ حَسَّانَ الْمَقْدِسِيِّ، عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول: «أَلِظُّوا بِذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ».

وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُبَارَكِ، بِهِ.

وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: أَلَظَّ فُلَانٌ بِفُلَانٍ: إِذَا لَزِمَهُ.

وَقَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ: «أَلِظُّوا بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» أَيِ: الْزَمُوا. وَيُقَالُ: الْإِلْظَاظُ هُوَ الْإِلْحَاحُ.

قُلْتُ: وَكِلَاهُمَا قَرِيبٌ مِنَ الْآخَرِ -وَاللهُ أَعْلَمُ- وَهُوَ الْمُدَاوَمَةُ وَاللُّزُومُ وَالْإِلْحَاحُ. وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» وَ«السُّنَنِ الْأَرْبَعَةِ» مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا سَلَّمَ لَا يَقْعُدُ -يَعْنِي: بَعْدَ الصَّلَاةِ- إِلَّا قَدْرَ مَا يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ».

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الرَّحْمَنِ، وَلِلَّهِ الحمد والمنة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد؛ فأسأل الله الكريم لي ولكم التوفيق للصالحات والعفو عن السيئات، وأن يجعلنا من الأبرار المقربين وأن لا يحرمنا فضله وأن لا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين.

ثم في هذه الآيات من آخر سورة الرَّحمٰن فيها ذكر ثواب المؤمنين أهل اليمين وهم المقتصدون الذين أتوا بالواجبات وتركوا المحرمات، أو من ظلم نفسه وتاب أو غفر الله جل وعلا له أو كفر الله جل وعلا عنه سيئاته؛ فقال سبحانه في ذكر ثواب هذه الطائفة ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ ومن دونهما يعني دون الجنتين السابقتين اللتين أعدهما الله جل وعلا لأهل الخوف منه ولأهل الإحسان؛ فقال فيها: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ وقال في آخرها: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ فالجنتان الأوليان للسابقين بالخيرات لأهل الإحسان الذين أحسنوا العمل ظاهرًا، وأحسنوا العمل باطنًا، أحسنوا العمل ظاهرًا بالمتابعة وأحسنوا العمل باطنًا بإخلاص القصد والنية وابتغاء وجه الله جل وعلا بالعمل.

قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ وكلمة (دونهما) كلمة دون في اللغة تطلق علىٰ (غير)، وتطلق علىٰ الدونية في المعنىٰ وعلىٰ الدونية في المكان.

فمن الأول الآيات التي فيها عبادة دون الله جل وعلا؛ يعني غير الله جل وعلا.

ومن الثاني وهو الدونية في المعنىٰ أن يقال: الصحابة دون النبي عليه الصلاة والسلام، والتابعون دون الصحابة وهكذا يعني في ما اتصفوا به من صفات وما لهم من الفضل والمزية.

والثالث دونية المكان فيقال يعني في اللغة المدينة دون مكة لأهل العراق؛ يعني أنهم يأتونها أولًا فهي أقرب، والمراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾، المعنىٰ الثاني وهو الدونية في المعنىٰ والمنزلة وقد يكون أيضًا أنها دونية في المكان باعتبار الداخل الجنة وأن أهل الجنتين الأوليين في ارتفاع وأهل الجنتين الأخيرتين دون ذلك يعني في المكان.

فإذًا قوله جل وعلا: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ نفهم منه أن الجنتين الأوليين أرفع وأفضل وأعظم من حيث المكانة ومن حيث المكان، ومن حيث النعيم ومن حيث أهل ذلك النعيم الذين استحقوه برحمة الله جل وعلا وفضله.

وذكر لك ابن كثير الدلائل التي دلت علىٰ هذا المعنىٰ في عدة شواهد ودلائل في وصف الجنتين الأوليين؛ قال جل وعلا: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ وأصل هذه

الكلمة في لغة العرب وما اشتق منها مثل الدهمة والأدهم ونحو ذلك هو اشتداد السواد، واشتداد السواد في النبات معناه اشتداد الخضرة؛ لأن سواد كل شيء بحسبه، ولهذا اجتمعت تفاسير السلف علىٰ أن قوله: ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ ﴾ يعني شديد الخضرة من الري ومن الجمال والعرب تفاخر بري البساتين وري الأشجار باشتداد خضرتها فإذا كانت الخضرة مشتدة وكانت الجنة دهماء فإنه هذا يدل علىٰ شدة عناية صاحبها بها وعلىٰ فضلها علىٰ غيرها.

فإذن التفاسير التي ذكرها متقاربة يعني شديدة الخضرة من الري فيها نعومة جمال نضرة هذه متقاربة.

قال سبحانه بعدها ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ ﴾ ومرَّ معنىٰ كلمة العين وما تدل عليه، ونضاختان، النضخ مرتبة في خروج الماء ما بين النضح وما بين الجريان؛ فالمراتب ثلاث: ـ

١ـ فإذا كانت العين يستقىٰ منها بكلفة فيقال: أنها نضح، والنواضح هي التي تخرج ما في البئر من الماء أو كانت قليلة الماء.

٢ـ أما إذا كانت تنبع إذا كانت تنبع بالماء فيقال لها تنضخ لشدة خروجها.

٣ـ فإذا كانت أكثر من ذلك كانت تسيل علىٰ وجه الأرض يقال: تجري، ولهذا فضلت العينان السابقتان علىٰ هاتين لأجل الفرق بين النضخ والجريان.

فهناك فيها ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ ﴾ وهنا ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ ﴾.

ثم قال جل وعلا بعدها: ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ والعطف هنا (نخل ورمان) هذا كما قال من باب عطف الخاص بعد العام لأن كلمة فاكهة من حيث الجنس يشمل الرمان ويشمل ثمر النخل وهو الرطب، وفي الجنتين الأوليين أو في الوصف السابق قال جل وعلا: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ ﴾ وهذا في العموم أكثر وأعظم وخاصة أنه ذكر الزوجين.

هنا قال: ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ وتأخير المبتدأ هنا (فاكهة) وما عطف عليه (ونخل ورمان) لأجل التنكير يعني في النحو وفي البلاغة التأخير والتنكير فيه فوائد متعددة من ضمنها كما ذكرت لك إطلاق المعنىٰ لتفخيمه ولمعرفة علو شأنه، وهذا أيضًا مما يدل علىٰ أن ما في الجنة من النعيم أنه لا يقدر قدره ولا خطر علىٰ قلب بشر لأنه قال: ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ وهذه الفاكهة لا حد لها، ﴿ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ لكن نخل لا كالنخل ورمان لا كالرمان ومر معك قول ابن عباس رضي الله عنهما ليس في الجنة من دنياكم إلا الأسماء وما

ذكرنا لك من التعليق عليه.

ثم قال جل وعلا: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ ﴾، ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ وكلمة (خيرات) جمع خيرة وللسلف فيها تفسيران:

الأول: إبقائها علىٰ عمومها، وهي الدلالة علىٰ كل خير، كل ما فيه خير وفيه خيرة، وجمال لصاحبه يختاره ويريده ويكون خيرًا له مما عداه فإنه يدخل في عموم ذلك لكن هذا قول.

القول الثاني: أن المراد بالخيرات النساء من الحور العين من نساء الجنة، وهذا الثاني هو الأشهر الذي عليه الجمهور؛ وهو الذي يدل عليه قوله: ﴿ حِسَانٌ ﴾ وكذلك قوله في الآية التي بعدها: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ﴾ فإذًا الأظهر أن قوله: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ أن الخيرات الحسان نساء الجنة من الحور العين.

والحسن يختلف عن الجمال، فالحسان يعني أنهن ذوات حسن والفرق بينهما أن الحسن ذاتي، والجمال قد يكون ذاتيًا وقد يكون مجلوبًا، وهذا قاعدة سواء ما في القرآن أو ما في اللغة، أو في النظرة إلىٰ الجمال بعمومه، والجمال ليس خاصًّا بالذوات يعني في الشرع؛ بل الجمال في الذوات وفي المعاني، قال النبي عليه الصلاة والسلام لما سأله الرجل فقال: يا رسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا، قال: «الكبر بطر الحق وغمط الناس، إن الله جميل يحب الجمال» أو بالتقليب «إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس» فالله جل وعلا جميل من جهة الذات والأسماء والصفات والأفعال، ولأجل التعدي صار الجمال موصوفًا به الرب جل وعلا دون الحسن؛ لأنه أعظم وأبلغ، وإلا فأسماء الله جل وعلا حسنىٰ وأفعاله جل وعلا وصفاته جميلة ﷻ.

الجمال يرجع إلىٰ ما في الذات وما في المعاني من حسن، وكذلك يرجع إلىٰ ما جلبه الإنسان لنفسه من أنواع المحسنات، من أنواع الجمال.

فمثلًا المنطق الحسن جمال قد يكون ذاتيًا، فيكون من الحُسن، وقد يكون مجلوبًا فيكون جمالًا، وهذا كثيرًا مثل ما ذكرت لك دلائل الحديث عليه: «إن الله جميل يحب الجمال» لأن ذلك الجمال جلبه الرجل بتحسين ثوبه وتحسين نعله.

قوله هنا: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ يدل علىٰ أن الحسن ملازم لهن وعلىٰ أن الله جعلهن كذلك؛ يعني

من حيث الخلقة، ثم قال ﷻ بعدها: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ﴾ وفضلت الحور الأُول علىٰ هذه بأن تلك قال فيها: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ فجعل قصر الطرف فعلًا من هن لا فعلن بهن، وهذه قال فيها ﴿ مَّقْصُورَٰتٌ ﴾ يعني أنهن قُصِرنَّ في الخيام ولازم ذلك أنهن قصرن عن النظر إلىٰ غير أزواجهن ولا شك أن هذا مزيد فضل يعتني به العربي ويعتني به صاحب الغيرة؛ لأن من تمام لذته أن لا يرنوا طرف حوره وطرف من يستمتع بهن عنه إلىٰ غيره.

قال: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ وهنا قال: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ﴾ ووصف الخيام ذكر لك ابن كثير عدة أحاديث فيها وآثار، والخيام ليست كالخيام، الخيمة اسم فقط أما حقيقة تلك الخيمة وكيفيتها فلا يقدر قدرها إلا الله جل وعلا، لؤلؤة واحدة مجوفة، أو تمتد كذا وكذا مسيرة، أو بعضها محجوب عن بعض يعني الأمر عظيم.

قال جل وعلا بعد ذلك ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ ﴾ وهذا من تمام اللذة والسبق.

ثم قال: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ هذه تُفهم بالمقابلة مع الأول، ذكر لك هنا اختلافهم ذكر اختلافهم في تفسير الرفرف وتفسير العبقري؛ لكنها متقاربة وتفهم بالمقابلة مع الأولىٰ؛ لأنه قال جل وعلا في وصف الأُول؛ يعني في وصف الجنتين الأوليين قال: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ وهنا قال: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ فإذا قابلت بين هذه وهذه علمت أن الرفرف الخضر والعبقري الحسان أنه من نوع الفُرش والزرابي والطنافس إلىٰ آخره مما يجلس عليه المنعم أو يتكئ عليه أو يفترشه أو ينظر إليه ونحو ذلك، العبقري هذه نسبة إلىٰ مكان ما صنع فيه قيل له عبقري، وزاد أو توسعوا حتىٰ جعلت للمتميز في كل شيء، المتميز من الرجال يقال له عبقري، والمتميز من الأثاث يقال له عبقري، والمتميز سواء كان من هذه الجهة أو من غيرها.

فإذن قوله ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ يشمل كل ما تميز يعني الجنة ليس فيها شيئًا منسوب إلىٰ البلدة هذه أو إلىٰ الجملة هذه عبقري وإنما علىٰ التوسع في أن العبقري كل ما زاد في الجمال أو كل ما تميز علىٰ غيره فالرجل يوصف بأنه عبقري إذا كان متميزًا علىٰ غيره في الحنكة والذكاء والدربة ونحو ذلك.

فإذًا كل ما ذكره ابن كثير يدخل فيها؛ لأجل عموم اللفظ أو عموم المعنىٰ.

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ هذه الآية ختم الله جل وعلا بها السورة، ولختم السورة بها مناسبة فيما يظهر وذلك أن كل ما ذكر في هذه السورة هي من فيض بركات الله جل وعلا وذلك أن تعليم القرآن الذي ذكر في أولها ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ ﴾ هو من فيض بركات الله جل وعلا، وبركة أسمائه ﷻ أيضًا فاضت آثارها علىٰ خلق الله جل وعلا فصارت مباركة لابن آدم.

وهذا الفعل تبارك هو كتعاظم من جهة اللزوم، ولهذا فسر ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: تبارك قال: كتعاظم أو تعاظم، وذلك لأن كلمة تفعّل قد تكون من جهتين وقد تكون للزوم، فالمراد بأنها تعاظم أو كتعاظم المراد بها اللزوم؛ أن اسم الله جل وعلا أو أن الله جل وعلا تبارك، ومعنىٰ تبارك أي كثرت بركته وعظمت.

والبركة هي الخير الكثير الثابت الدائم، ولهذا ما وصف الله جل وعلا إنسانًا بأنه تبارك، ولا يصح أو ما يجوز أن يقال: تبارك فلان؛ لأن كلمة تبارك تعني عظمة البركة وكثرة البركة وهي لزوم الخير ودوامه وهذا ليس إلا إلىٰ الله جل وعلا، فلا يسوغ أن يقال تبارك فلان أو تباركت علينا يا فلان أو نحو ذلك من العبارات؛ لأن هذه مما اختص الله جل وعلا به، وهي التي جاءت في القرآن ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان]، ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ ﴾[الملك:١]، ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾[الفرقان:٦١] ونحو ذلك، والآيات كثيرة في هذا يعني في قصر تبارك علىٰ رب العالمين.

أما العبد فيبارك، فالله جل وعلا تبارك، وصفاته أيضًا ﷻ مباركة ومنها القرآن العظيم، فالقرآن مبارك ﴿ وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾[الأنبياء:٥٠]؛ يعني أن خيره كثير ودائم لا ينقطع وبعض مخلوقات الله جل وعلا جعلها الله مباركة أيضًا؛ فبارك علىٰ إبراهيم وعلىٰ إسماعيل وعلىٰ إسحاق، وقال جل وعلا: ﴿ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ ﴾؛ يعني علىٰ إسماعيل وإسحاق ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾ ﴾[الصافات]، وقال جل وعلا في الأرض: ﴿ وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا ﴾ [فصلت:١٠]، والأرض المباركة من ذلك.

إذًا فالبركة من الله جل وعلا هو الذي يبارك، وأيضًا ما يصح أن نقول: يبارك فلان أو تبارك هذا العمل أو نباركه، نباركه يعني هكذا بالتعدية أو نبارك فيه؛ يعني تدعو بالبركة هذا لا بأس لكن تباركه هل أنت تبارك هذا العمل، العمل نباركه أو هذه الأعمال نباركها بمعنىٰ نوافق عليها أو أرضاها أو أشجع عليها هذا لا يصح لأن الذي يبارك هو الله جل وعلا.

فإذًا الإنسان المخلوق مبارك يباركه الله جل وعلا؛ يعني يجعله مباركًا الأرض يجعلها الله جل وعلا مباركة، الإجتماع يجعله الله جل وعلا مباركًا، الإنسان المسلم أيضًا فيه بركة كل مسلم فيه بركة بقدر ما فيه من الأعمال الصالحة والصدق مع الله جل وعلا.

المقصود أن قوله هنا: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ﴾ هذه كلمة تبارك مما يختص بالله جل وعلا وبأسمائه ﷻ.

كلمة ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ﴾ اسم هذه تتردد في القرآن أن يتجه الفعل إلىٰ الاسم لأن تبارك اسم، اسم فاعل، تبارك وتارة تكون مفعول ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١ ﴾ وهذه للعلماء فيها وجهان:

الأول: أن المراد بالاسم المسمىٰ، ويكون ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ﴾ يعني تبارك ربك، ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١ ﴾ يعني سبح ربك الأعلىٰ.

والثاني: أن المراد الاسم ودلالة الاسم علىٰ المسمىٰ واضحة؛ لكن المراد الاسم: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ﴾ يعني أن الأسماء مباركة، ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ﴾ يعني نزه أسماء الله جل وعلا عن النقص.

والأول أشهر، والثاني الظاهر يدل عليه.

قال: ﴿ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨ ﴾ يعني أن الله ﷻ موصوف بالجلال والإكرام، والجلال الهيبة والعظمة وما يدخل في معنىٰ القهر والجبروت ونحو ذلك فأسماء الجلال لله جل وعلا كل اسم يشتمل علىٰ معنىٰ الهيبة والجبروت والقهر والتصرف وأشباه ذلك مثل اسم الملك: مالك مثل القهار الجبار مثل القدير مثل الخافض الرافع الباسط القابض المانع المذل المعز المذل النافع الضار ونحو ذلك هذه أسماء جلال فيها اللي تعطي الخوف والهيبة من الرب جل وعلا ومراقبته والخوف من عذابه وخزيه ﷻ، الجلال ملازم ذي الجلال؛ يعني المستحق لأن يجل هو جليل ﷻ ومن أسمائه الجليل وهو مستحق أن يجل فلا يعصىٰ جل وعلا يعني يخاف منه ويعظم فلا يعصىٰ الرب تبارك وتعالىٰ.

قال بعدها: ﴿ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨ ﴾ لأن الإجلال الجلال قد يكون لرهبة وخوف، ويعني إجلال العبد لربه رهبة وخوف ومراقبة وهيبة وذل ولا يكون مع ذلك إنعام فلا يكون للعبد فيه أُنس لكن إذا كان هناك جلال وإكرام صار مع الخوف إكرام من الله جل وعلا للعبد، فيكون هناك الخوف فيه أنس وفيه قرب وفيه محبة، ولهذا جمع بينهما في آخر هذه السورة العظيمة.

النبي ﷺ أمر بملازمة ذا الجلال والإكرام بملازمة يا ذا الجلال والإكرام، فقال في الحديث الذي ذكر

لك ابن كثير أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام» ياذا الجلال والإكرام يعني ألزموها وأكثروا منها في الدعاء، لظَّ بالمكان يعني لزمه ولظَّ فلان بفلان يعني لزمه لغرض أو لأداء حقه «ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام» يعني ألزموا هذا الدعاء يا ذا الجلال والإكرام والصواب أن هذا الحديث صحيح وأن الرواية التي ذكرها الترمذي رواية الحسن مرسلًا هذه لا تؤثر فيمن رواه موصولًا فالحديث صحيح، كذلك النبي عليه الصلاة والسلام كان يستعمل أو يدعو بعد الصلاة المفروضة بقوله: «اللّٰهمَّ أنت السلام ومنك السلام تباركت ذا الجلال والإكرام» أو «تباركت يا ذا الجلال والإكرام» وهما روايتان وهذا من ملازمة يا ذا الجلال والإكرام حتىٰ في الثناء علىٰ الله جل وعلا.

إذًا فهذا الوصف العظيم أن الله ﷻ هو ذو الجلال والإكرام يلازم في الثناء علىٰ الله سبحانه، وكذلك في الدعاء وهذا يشمله قوله: «ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام» ففي الثناء قال: «اللّٰهمَّ أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام».

ومسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الصحيح قدم رواية يعني بإسقاط الياء «الله أنت السلام ومنك السلام تباركت ذا الجلال والإكرام» علىٰ التي فيها «يا ذا الجلال والإكرام» وكأنها أقوىٰ يعني بإسقاط (يا)، وإلا فالمعنىٰ واحد لأن تباركت ذا الجلال يعني يا ذا الجلال والإكرام وكلها صحيحة؛ لكن كأن مسلمًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سياقه للدعاء بعد الصلاة يرجح ذا الجلال والإكرام بدون (يا).

وهذا آخر تفسير هذه السورة سورة الرَّحمٰن جعلنا الله وإياكم من أهل الجنان، وأعاذنا من نزغات الشيطان، إنه جواد كريم.

[الأسئلة]

سؤال (): هل يجوز أن نقول للواحد أنت رجل مبارك ؟

الجواب: نعم إذا كان كل مسلم فيه بركة البركة نوعان: بركة ذاتية، بركة عملية.

البركة الذاتية: يعني أن يكون الجسم الذات نفسها مباركة من حيث البدن والجسم والأجزاء ونحو ذلك، وهذه ليست إلا للأنبياء والمرسلين؛ يعني في شريعتنا، أو للنبي ﷺ وحده هو الذي ذاته مباركة فيتبرك بشعره، يتبرك بعرقه عليه الصلاة والسلام، يتبرك بأجزاء بدنه بلباسه إلىٰ آخره، فأجزاء بدنه عليه الصلاة والسلام مباركة لذلك يتبرك به هذه بركة ذاتية، ليست لأحد من الصحابة إنما هي للنبي عليه الصلاة والسلام.

أما **البركة الثانية**: هي بركة العمل، بركة العمل هذه لكل مسلم مثل ماروىٰ البخاري في «الصحيح» لحديث ابن عمر المعروف أن النبي ﷺ قال: «إن من الشجر شجرة بركتها كبركة المسلم» والرواية الثانية التي في «الصحيح» أيضًا «إن من الشجر شجرة مثلها مثل المسلم» وهذه الرواية «بركتها كبركة المسلم» أيضًا في الصحيح، أيش «بركتها كبركة المسلم»؟ يعني أن خيرها كثير دائم ما ينقطع إلا بالموت، المسلم خيره وعمله ونفعه للناس ونفعه لأخوانه المؤمنين ما ينقطع إلا بالموت؛ يعني المسلم الحق فقوله: «بركتها كبركة المسلم» فيه إثبات أن كل مسلم فيه بركة ومعلوم أن بركة المسلم ليست ذاتية فيتبرك بأجزائه لا أحد يقول: أن كل مسلم يتبرك بذاته وأجزائه وإنما هذه بركة عمل بالاتفاق كذلك ما جاء في حديث التيمم نزول آية التيمم أن أسيد بن حضير قال لعائشة رضي الله عنها: ليست هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر؛ يعني لما انقطع عقد عائشة وظلوا يبحثون عنه تطييبًا لخاطر زوج النبي عليه الصلاة والسلام فانتهىٰ الماء فنزلت آية التيمم، فصار هذا من بركة صدق أبي بكر وصدق آله وقربهم من النبي ﷺ.

المقصود أن البركة نوعان:

بركة ذاتية وهذه للنبي عليه الصلاة والسلام وحده ومعناه أنه يتبرك بأجزاء بدنه وشعره عليه الصلاة والسلام يعني ما وجد من ذلك بيقين فلا بأس من التبرك بها.

والنوع الثاني **بركة عملية**، البركة العملية بركة علم، بركة صلاح، بركة صلاح بركة سعي في الخير هذه ممكن نقولها للمسلم هذا من بركة فلان يعني من بركة عمله الصالح، من بركة فلان أنكم اجتمعت عندي يعني من بركة صلته من وعمله الصالح وقربه ومحبته لإخوانه، الاجتماع علىٰ الذكر وعلىٰ الخير ونحو ذلك، ونظائر هذا متعددة. مثلًا فلان أعاد الله علينا من بركته، نقول البخاري رحمه الله أعاد الله علينا من بركته هذه بركة علمه لا بركة ذاتية، بركة علم ونفعنا ببركة علومه هذه بركة علم فالمسلم عمله الصالح فيه بركة وكذلك علمه فيه بركة، وهذه لها تفاصيل.

سؤال (): هل يجوز إطلاق مبارك علىٰ هذا الكتاب ؟

الجواب: إذا كان فيه الكتاب والسنة فكل كتاب فيه ذكر الله جل وعلا فهو مبارك يعني فيه خير إذا كان ملازم للكتاب والسنة ما فيه بدع ولا فيه ما ينهىٰ عنه ففيه خير كل مسلم مبارك، بركته كبركة المسلم كل مسلم مبارك وكذلك عمل المسلم الصالح مبارك، الأرض تكون مباركة؛ يعني أن خيرها كثير ما فيها من

العلم والجهاد أو من العبادة أو نحو ذلك.

سؤال (): هل يقال تبارك القرآن ؟ باعتباره من صفات الله جل وعلا ؟

الجواب: ما جاء في الكتاب والسنة في علمي كلمة تبارك القرآن، ما جاء ولكنها لو قيلت الظاهر أنها ليست غلط؛ لكنها ما جاءت الله جل وعلا جعل القرآن مباركًا ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ ﴾ فالقرآن مبارك، وقال: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾[الفرقان:١] جعل تبارك له ﷻ بسبب إنزاله للقرآن.

سؤال (): هل معناه كثير خيره ؟

الجواب: كثير الخير دائمه الثنتين كثرة الخير ودوامه.

سؤال (): إذا كان واحد يهنأ إنسان علىٰ النجاح هل نقولك مبارك أو نبارك ؟

الجواب: مبارك اسم المفعول ليس مبارك، مبارك ما لها معنىٰ، مبارك أنت مبارك فتقول جئت مباركًا يعني مباركًا لك يعني داعيًا لك بالبركة؛ لكن نقول له مثلًا مباركًا النجاح، مبارك الهداية، مبارك هذا العمل الطيب، مبارك يعني أن الله جل وعلا جعل فيه البركة وجعل فيك البركة.

سؤال (): اسم الله (الجليل) هل ورد فيه نص؟

الجواب: لا استحضر الآن نراجعها إن شاء الله.

سؤال (): قول بعضهم بعض الصلاة تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام ؟

الجواب: والله ما دري الذي نحفظها الذي في الصحيح تباركت يا ذا الجلال والإكرام، إيه أقول الذي في الصحيح، ما فيها يمكنها في السنن يقول الأخ في الترمذي.

سؤال (): ما وجه استدلال أهل السنة بذي الجلال والإكرام أن ذي المقصود بها الذات

الجواب: يعني أنه ذي هذا نعت لربك، نعت لربي واضح وايش الثانية ؟

وجه الله جل وعلا ذو الجلال، ذو جلال، وجه الله جل وعلا ذو جلال إيش الإشكال، ما فهمت الإشكال ؟

قولهم: ذي المقصود بها الذات ؟

الجواب: هو ما هو بالذات هنا نعت فيها ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ﴾ ربك مضاف، مضاف إليه صحيح ؟ ربك

مضاف إليه، مضاف إليه مجرور بالإضافة وعلامة جره الكسرة الظاهرة وهو مضاف والكاف أيضًا في محل جر بالإضافة هنا ﴿ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ ذي الجلال هذا نعت لربي واضح، والآية الأولىٰ: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ وعلىٰ أنها نعت للوجه فالله جل وعلا وجهه ذو جلال وإكرام، وكذلك هو ﷻ ذو جلال وإكرام، وبالنسبة للوجه بخصوصه قد تضاف إليه الأشياء؛ لأن الوجه عند العرب دلالته كدلالة الذات، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[القصص:٨٨] يعني إلا هو ﷻ أو إلا ما أريد به وجهه ﷻ، ما فيه فرق بينهما.